بصائر المعرفة القرآنية

قرآن يتلى لإنسانية به ترقى

البيان التصويري للأمثال القرآنية

دراسة موضوعية للمثلين: النـــاري والمـــائي

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن والدراسات القرآنية

البيان التصويريُّ للأمثالِ القرآنيةِ
(دراسةٌ موضوعيةٌ للمَثَلين: الناريِّ، والمائيِّ)

عبد السلام مقبل المجيدي [1]

الملخّص

يسهم هذا البحث في بيان الرؤية القرآنية للمنافقين، من خلال البيان التصويري الذي يجلي جمال التراكيب القرآنية، ويظهر روعتها، ويصور البحث كيف عطل المنافقون وسائل الاستبصار والاهتداء والانتفاع بنور الوحي، وتعاموا عن معالم الرشد الإلهي الذي امتنَّ به الله على عباده، ولم يكتفوا بذلك حتى أدخلوا أنفسهم في الظلمات، وجذبوا غيرهم إلى أودية الهلكات، وسعوا إلى زعزعة وحدة المجتمع وتماسكه، وصاروا في حالة لا يرجعون فيها عن صممهم وعماهم وبكمهم، بإصرارهم على الكيد والتآمر على دين الله وشرعه، وعلى عباده المؤمنين المصلحين، ويهدف هذا البحث إلى إبراز أثر الأمثال القرآنية في تصوير أصناف المنافقين، ويبيِّنُ وجوه البيان التصويري في القرآن الكريم؛ من خلال دراسة موضوعية للمَثَلين المضروبين لصنفين منهم: الناري والمائي المضمنين في الآيات [17- 20] من سورة البقرة، مستخدمًا المنهج الوصفي التحليلي لصفات صنفي المنافقين في الآيات موضع الدراسة، وبيان أحوالهم، ومواقفهم من نور الوحي على شكل مشاهد تصويرية متتابعة، موضحًا ما اكتنزه النص القرآني من وجوه البيان التصويري ودلالاته في التعرض لهذين الصنفين، وقد توصل البحث لنتائج أهمها: القوة التصويرية للقرآن المجيد حيث قدم لنا تصويرًا دقيقًا محكمًا لأحوال المنافقين ونفسياتهم، وتفاوت أنشطتهم، وعرض صفاتهم وكشف دخائل نفوسهم، ودوافعها لسلوك هذا السبيل، وهذا التصوير جسَّد صفات المنافقين وخصالهم الذميمة في صور حية محسوسة للتشنيع عليهم، وتعرية مخططاتهم، وحاول البحث أن يصل إلى أنه لا بد من الاستعانة بالمثلين (الناريّ، والمائيّ) في فهم ظاهرة النفاق المعاصر، والإسهام في رسم معالم التعامل المنضبط معها.

الكلمات المفتاحية: المنافقون، المثل الناري، المثل المائي، المَشَاهِد.

[1] أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم، كلية الشريعة، جامعة قطر، S1435y@gmail.com

Representational power/force of Quranic Parables

(objective study of the two parables: fiery and watery)

AbdelSalam Moqbel Al-Majeedy [2]

Abstract

This research contributes to illuminating the Quranic view towards the hypocrites, through the eloquence miracle that manifests the beauty and magnificence of the Quranic verses' structures. The research also shows how hypocrites malfunctioned the means of Insight, guidance, and benefit from the light of revelation, they folded their eyes from seeing the divine guidance signs. they were not satisfied with that until they plunged themselves into darkness, and attracted others to the valleys of doom, and sought to destabilize the unity and solidity of the society, and they became in a state in which they cannot turn back from their deafness, blindness, and dumbness, by their persistence on plotting and conspiring against the religion of Allah, and His religion. and plotting and conspiring against His faithful servants, and this research aims to highlight The impact of Quranic Parables in depicting the types of hypocrites, and showing the faces of the eloquence in the Holy Quran; Through an objective study of the two Parables of two types of them: the fiery and the watery, which are included in verses [17-20] of Surat Al-Baqarah, using the descriptive tracking approach of the characteristics of the two types of hypocrites in the verses subject of the study, and clarifying their conditions and their situations from the light of revelation in the form of consecutive eloquence scenes, explaining what The Quranic text was rich in aspects of the pictorial miracles and its implications in the exposure to these two types, and the research reached the most important results: the eloquence power of the Glorious Quran, as it provided us with an accurate and precise depiction of the conditions and psychologies of the hypocrites, and the discrepancy in their activities, displaying their characteristics and revealing the inner feelings, and their motives for choosing such path, and this depiction embodied The characteristics of the hypocrites and their reprehensible qualities in vivid and tangible images to vilify them, and expose their plots, the research also tried to conclude that it is necessary to use the two parables (fiery and watery) to understand the phenomenon of contemporary hypocrisy, and to contribute to drawing the limits of a disciplined deal with it.

Keywords: hypocrites, fiery parable, water parable, scenes

[2] Prof. Dr of Interpretation and Sciences of the Noble Qur'an, College of Sharia, Qatar University, S1435y@gmail.com

المقدمة:

الحمد لله أنزل على عباده القرآن؛ ليخرجهم به من ظلمات الكفر، والنفاق، والعصيان، إلى أنوار السكينة والإيمان، والصلاة والسلام على من بصَّر أمته، بسواء السبيل، وتركها على خير محجة، وأقوم قيل، وأهدى دليل.

وبعد:

فإن بصائر القرآن الكريم قد تنوَّعت مسالكها، وتعددت طرقها في إيصال الهدى للخلق، وتجلية حقائق الأمور، وبيان سبل العيش الرغيد، وأسس السعادة في الدارين، وكان من بين تلك المسالك والطرق ضرب الأمثال، وكان ممَّا ضرب له الأمثال أحوال طائفة النفاق ونفسياتهم المريضة، ومن الآيات التي كشفت أصناف المنافقين، وطبيعة تفكيرهم، وأنشطتهم الخبيثة: (المَثَلان: الناريُّ، والمائيُّ). جاء المثلان مقترنين؛ يصوران حال الفريقين الرئيسين اللذين ترجع إليهما طوائف النفاق في مشاهد تأسر الألباب ببالغ إعجازها، ودقة تجسيدها، وذلك في الآيات [17-20] من سورة البقرة التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا... ﴾، وتنتهي بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 17-20].

وقد اخترت أن يكون عنوان هذه الدراسة الآتي: **البيان التصويري للأمثال القرآنية** (دراسةٌ موضوعيةٌ للمَثَلين: الناريِّ والمائيِّ).

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في الآتي:

أولًا: ما مدى الجمال التصويري الذي يقدمه المثلان المائي والناري في الآيات [17-20] من سورة البقرة.

ثانيًا: هل المثلان وجهان لفئة واحدة من المنافقين أم يصوران فئتين مختلفتين منهم؟

ثالثًا: كيف تعكس الأمثال القرآنية البيان التصويري المشرق للقرآن المجيد؟ وكيف يمكننا استخراج كنوزه منها؟.

أهمية البحث:

1) الإسهام في إبراز جمال التصوير القرآني لأحوال المنافقين المذكورين في هذين المثَلين؛ حيث لم تتطرق لذلك الأبحاث العلمية التي تناولت هذا الموضوع.

2) استكشاف روعة الرؤية القرآنية في ضرب الأمثال لتوضيح حال المنافقين، وذكر صفاتهم النفسية والفعلية؛ ليحذر المجتمع من أفعالهم، حتى لا يقعوا في فخاخهم وهم لا

يشعرون.

3) الاهتمام ببصائر القرآن التي تبصِّر الناس بالقضايا الجوهرية التي تلامس واقعهم، وتقدم لهم الحلول المناسبة في التصدي لهذه القوة الخفية "قوة النفاق".

أهداف البحث:

يسعى البحث لتحقيق جملة من الأهداف منها:

1) الوقوف على معالم منهجية القرآن الكريم في الكشف الدقيق لأصناف المنافقين.

2) التعرُّف على دلالات الأمثال القرآنية الموضِّحة لدخائل نفوس طائفة النفاق، وخفايا دوافعهم لسلوك هذا السبيل.

3) إظهار وجوه البيان التصويري في القرآن الكريم في تجسيد صفات المنافقين، وخصالهم الذميمة على وجه بالغ من الدقة والإحكام والتناسب.

4) الاستعانة بالمثلين (الناريّ، والمائيّ) في فهم ظاهرة النفاق المعاصر، والإسهام في رسم معالم التعامل المنضبط معها.

منهج البحث:

وُظِّف المنهج الوصفي في هذا البحث لعرض صفات صنفي المنافقين الوارِدَين في الآيات موضع الدراسة، مع إعمال المنهج التحليلي، والاستنباطي في بيان أحوالهم، ومواقفهم من نور الوحي، على شكل مشاهد متتابعة، تبرز الصورة الإجمالية لهذه الطائفة.

الدراسات السابقة:

تعددت الكتابات حول النفاق والمنافقين في القرآن الكريم، وتباينت الأنظار في تناول هذه القضية من زوايا مختلفة، ومن أبرز الدراسات السابقة ذات الصلة:

1- (المنافقون في القرآن الكريم)، لعبد العزيز بن عبد الله الحميدي، رسالة (ماجستير)، نوقشت عام 1395هـ.

2- (المنافقون في القرآن الكريم)، لمحمد يوسف عبد بن حسين، رسالة (دكتوراه) في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، شعبة التفسير، نوقشت عام 1404هـ.

3- (النفاق والمنافقون في القرآن الكريم) لسليمان شحدة حماد الشيخ عيد، رسالة (ماجستير)، الجامعة الأردنية، 1989م 1410هـ.

4- (آيات المنافقين في القرآن الكريم)، لهوازن عزة إبراهيم، رسالة (ماجستير)، جامعة بغداد، نوقشت عام 1995م - 1416هـ.

5- (النفاق والمنافقون في القرآن الكريم)، لسانوسي ابن الحاج روحالي، رسالة (ماجستير) في جامعة صدام للعلوم الإسلامية، 1996م- 1417هـ.

6- صورة المنافق في القرآن الكريم دراسة الدلالات الصوتية والصرفية (سورة التوبة نموذجًا)، للبخاري السباعي، رسالة (ماجستير) في جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، وقد نوقشت عام 2006م.

7- (السمات الشخصية للمنافقين في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية)، لجملات محمود نايف الجرايدة، رسالة (ماجستير)، الجامعة الإسلامية، غزة، عام 2010م.

وتجد هذه الدراسات العلمية قريبة من بحثنا، لكنها تغايره من جهة حدوده الموضوعية؛ كما في الدراسة السادسة التي اختصت بسورة التوبة، وما كان قريبًا منها فارقه هذا البحث في إبراز وجوه البيان التصويري لمثلين مضروبين للمنافقين في القرآن الكريم؛ إذ نجد الغالب على تلك الدراسات تفسير الآيات التي تناولت ظاهرة النفاق وصفات المنافقين بصورة مباشرة دون التركيز على الأمثال التي ضربها الله ﷻ لهم، وهو ما يميز هذه الدراسة عن غيرها.

تمهيد: قضايا البحث، وبيان أن التمثيل أسلوب قرآني متميز

أهم القضايا التي يرتكز عليها البحث، وتظهر فيها مصطلحاته:

القضية الأولى: بين البيان والإعجاز في التصوير القرآني:

الإعجاز لغة واصطلاحًا:

الإعجاز في اللغة: من أَعْجَزَ وعَجِزَ، والعَجْزُ نقيض الحَزْم، والعَجْز: الضَّعْف، وعَجِزَ عن الأمر إذا قَصَرَ عنه[3]، وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ [سبأ: 5]، قال الزجاج رحمه الله: "معناه ظانين أنهم يعجزوننا"[4].

الإعجاز اصطلاحًا:

عرَّف الجرجاني-رحمه الله- الإعجاز في الكلام، فقال: "هو أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق"، وقال في موضع آخر: "هو أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يخرج عن

---

[3] ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، ج5، ص369.

[4] الزجاج، إبراهيم بن السري، **معاني القرآن وإعرابه**، ج3، ص433.

طوق البشر، ويعجزهم عن معارضته"[5].

فحصر إعجاز القرآن في الوجه البلاغي، وهو -بلا ريب- وجه للإعجاز متين، ولكن وجوه الإعجاز القرآني أكثر من أن يحصرها هذا التعريف التي منها: التشريعي، والعلمي، والنفسي، وهذا الكتاب المجيد لا تنقضي عجائبه، وما الإعجاز التصويري إلا أحد أنواع الإعجاز التي تفوَّق بها القرآن على سائر الكتب، بل على سائر الكلام.

وأما **المعجزة** فعرَّفوها بأنها: "أمرٌ خارقٌ للعادة، مقرونٌ بالتحدِّي، سالمٌ من المعارضة، يظهره الله ﷻ على يد رسله"[6]، ولم ترد هذه اللفظة في القرآن المجيد، بل ورد فيه: البيِّنة، والآية، والبرهان، وهي ألفاظ أوضح في بيان ماهية الحجة التي كان يستند إليها الأنبياء -عليهم السلام- في إثبات نبوَّتهم، إلا أن أهل العلم —رحمهم الله- تناقلوا لفظة المعجزة حتى سادت في لغتهم.

وقد استبدلت كلمة "الإعجاز" بكلمة "البيان" لأنها أعم منها، فالإعجاز يقتضي وجود براهين عقلية قوية لإثبات وجوده، ولذا عدلت عنها في هذا البحث، وإن كان البيان لا يخلو من إعجاز عند التأمل.

التصوير القرآني:

هو "الأداة المفضلة في أسلوب القرآن؛ فهو يعبر بالصورة المحسَّة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية؛ وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور؛ وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة[7]، وهو: "تحويل الحروف الصوتية الجامدة إلى ريشة تنبع من رأسها الأصباغ والألوان المختلفة، حسب الحاجة والطلب، لتحيل- بدورها- المعاني المعتادة إلى صور يتأملها الخيال، ويدركها الشعور، وتكاد العين أن تستوعبها قبل أن يستوعبها العقل"[8]، فمن وجوه البينة القرآنية (البيان التصويري)، ويهدف إلى تجسيد المعاني، وإحضار المواقف والتصرفات في مشاهد حية، وصور موحية دالة، ويميل أ.د/ نور الدين عتر -رحمه الله- إلى أن "بحث هذه الخاصة في أسلوب القرآن قديم وحديث، سابق ولاحق، يبرز الإعجاز عن إدراك إعجاز القرآن، وقد أشار القدماء لهذه الخاصة بما عبَّروا عنه حسب مصطلحاتهم كالتخييل والتجسيم[9]، دون أن

---

[5] الجرجاني، علي بن محمد، **التعريفات**، ص: 31، 83، وانظر: الكفوي، أيوب بن موسى، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، ص 149.

[6] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، **الإتقان في علوم القرآن**، ج4، ص3.

[7] قطب، سيد، **التصوير الفني في القرآن**، ص: 36.

[8] البغا، مصطفى ديب، مستو، محيي الدين ديب، الواضح في علوم القرآن، ص169.

[9] جعل سيد قطب التخييل والتجسيم من مظاهر التصوير الفني في القرآن، وذكر بعض ألوانه. ينظر: قطب، سيد، **التصوير الفني في القرآن**، ص 71.

يغوصوا في أعماقه الفنية، حتى إذا جاءت العصور الحديثة وفيها ارتقى التصوير، وأدوات العرض بالرؤية من أشرطة وأجهزة رائية جَهِدَ الأدبُ أن يلحق المصوِّرة، ويحل بالكلمة والعبارة محل الصورة، وكان من البديهي أن يلتفت الدارسون إلى إعجاز القرآن يبحثون فيه عن الصورة وعن فن التصوير"[10].

وهذه وجهة هذا البحث الذي اخترت له عنوان: **البيان التصويري للأمثال القرآنية،** (دراسة موضوعية للمَثَلين: الناريِّ والمائيِّ)؛ إذ يهدف من ورائه إلى تقديم فريقين من طائفة النفاق، وعرضهما وفق طريقة القرآن المعجزة المدهشة في التصوير والإثارة.

القضية الثانية: التمثيل أسلوب قرآني تصويري برهاني:

غلب على السياق السابق لهذه الآيات أسلوب التقرير المباشر لأحوال المنافقين، وسرد الحقائق المتعلقة بعالمهم؛ حيث ذكر الله ﷻ ستة عشر صفة من صفاتهم بصورة مدهشة، ولكن الأمر اختلف هنا، فانتقل بنا إلى التمثيل؛ فلماذا تغير الأسلوب القرآني في الحديث عنهم هنا؟

إن الخطاب القرآني يهدف إلى التنويع في التناول، ويعالج المعلومات بدقة، ويصوِّر للعالم حقيقة الصنف المنافق في المجتمعات، ويحرك العقول لتتدبر الكلام الذي يلقى إليهم، وليوضح عقليات المنافقين ونفسياتهم بصورة محسوسة مجسدة من خلال ربط ذلك بالطبيعة حولنا، قال الله ﷻ: ﴿مَثَلُهُمْ﴾، فضرب الله ﷻ لهم مَثَلين ليبين أنواعهم، وليوضح تنوع الأدوار التي يتقمصونها.

تعريف المَثَل:

"كلمة مِثْل ومَثَل ومثيل، كشِبْه وشَبَه وشبيه، وبَدَلٌ وبِدْلٌ وبَدِيلٌ، ولا رابِعَ لِهَذِهِ الكَلِماتِ في مَجِيءِ فَعَلٍ وفِعْلٍ وفَعِيلٍ بِمَعْنًى واحِدٍ"[11].

فالمَثَل هو المماثل إما بصورة كلية، وإما بصورة جزئية على نحوٍ ما، ويطلق المَثَل ويراد به جملة معانٍ:

المعنى الأول: يطلق على القول السائر الممثّل مَضربِه بمورده، بأن يحصل ظرف أو موقف يشبه من بعض الوجوه موقفًا مألوفًا سابقًا، فيستحضر أحدهم ما قيل سابقًا ليخبر أن الموقفين متشابهان.

المعنى الثاني: يطلق على الأنموذج العجيب الذي يتعلق بشأن محدد في الخير أو الشر، فصار واقعه يزيد الإنسان علمًا بحقيقة موجودة، وَهُوَ مِنْ مَثُلَ الشَّيْءُ مُثُولًا إذَا انْتَصَبَ بَارِزًا فَهُوَ مَاثِلٌ، ومن

---

[10] عتر، نور الدين محمد، **علوم القرآن الكريم**، ص 224.

[11] ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، ج1، ص303، وما ذكر أن (المِثْل)، و(المَثَل) بمعنى واحد إنما هو باعتبار الأصل، وإلا فإن المحققين من العلماء على أن هناك فرقًا بينهما؛ فقد ذكر ابن العربي أن المثل بالكسر عبارة عن شبه المحسوس، وبفتحها عبارة عن شبه المعاني المعقولة". الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، ج1، ص490.

ذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦].

المعنى الثالث: يطلق على الصفة الغريبة الفريدة: فَمَثَلُ الشَّيْءِ أي صِفَتُهُ الَّتِي تُوَضِّحُهُ وَتَكْشِفُ عَنْ حَقِيقَتِهِ، أَوْ مَا يُرَادُ بَيَانُهُ مِنْ نُعُوتِهِ وَأَحْوَالِهِ، ومن ذلك قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ [الرعد: ٣٥].

الأهداف العلمية والتعليمية لضرب الأمثال في القرآن:

أولًا: ليكون البلاغ مبينًا، وليظهر البرهان مكينًا، ولتقوم الحجة البالغة على البشرية، فالله –جلَّ مجده– ينوع الأساليب، ويضرب الأمثال للناس، لتثبت المفاهيم عندهم، وتتضح المسائل في حياتهم.

ثانيًا: لأن الأمثال تصوّر الشيء المعنوي، وتجسد المعاني المعقولة، وتزيد فهم المحسوس، وتجعل الخفي من المعاني كالواقع الملموس، فتُؤَثِّرُ فِي الْقُلُوبِ مَا لَا يُؤَثِّرُهُ وَصْفُ الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ، وتصوّر لك المتوهَم في معرض المتيقَن، وتبين لك الغائب كأنه مشاهَد؛ فللتمثيل بها شأن عظيم في إيصال المعاني إلى الأذهان الجامدة[12].

ثالثًا: لكشف تفاصيل المعلومات، ودقائق المفاهيم. ويعبر البقاعي –رحمه الله– عن ذلك، فيقول: "الأمْثالُ ألْصَقَ بِالبالِ، وأكْشَفَ لِلْأحْوالِ"[13].

رابعًا: في الأمثال تبكيتٌ للخصم الشديد الجدال، وقمعٌ لسَورة الجامح الأبيِّ المتكبر المتعالي عن قبول الحق، وهذا مما أشار إليه الزمخشري رحمه الله[14].

ويجمْل الله ﷻ الغايات العظيمة من ضرب الأمثال في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾[الزمر: ٢٧-٢٨]، والأمثال هنا يدخل فيها ما نتناوله في بحثنا، كما يدخل فيها غيره.

ولكن الله ﷻ يُبَصِّرُنا أن الذي يفيد من هذه الأمثال هم العالمون، فاشحذ بصيرتك لتدرك أسرار الآيات، فقد قال جلَّ ذكره: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43].

القضية الثالثة: مناسبة الآيات في [البقرة 17–20] لما قبلها:

---

[12] ينظر: الرازي، محمد بن عمر، **مفاتيح الغيب**، ج1، ص118.

[13] البقاعي، إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر**، ج1، ص118.

[14] الزمخشري، محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل**، ج1، ص72.

عرَّف الله ﷻ البشرية في الآيات التي سبقت هذه صفات المنافقين، ثم أعقب الله ﷻ ذلك بضرب مَثَلين لهم، ليكشف لك البيان القرآني في هذين المثلين بعض أنواع هؤلاء المنافقين، وطبقاتهم؛ حتى لا يتم التعامل معهم وفق نمطٍ واحدٍ، وحتى تتعرف إليهم بصورة أكبر، فهم أعظم عدو للمجتمعات والإنسانية على الإطلاق.

ويُبَصِّرُنا المثلان المضروبان في الآيات بفريقين من المنافقين:

الفريق الأول: الفريق الصُّلب الخالص في نفاقه، وضرب الله ﷻ لهم **المثل الناريّ**؛ حيث قال الله ﷻ عنهم: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧-١٨].

الفريق الثاني: المترددون والمراوغون من المنافقين، وضرب الله ﷻ لهم **المثل المائي**؛ **حيث قال الله ﷻ عنهم**: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة: 19-20].

المبحث الأول: المثل الناري يظهر البيان التصويري القرآني لفريق النفاق الأول: الصُّلب الخالص في نفاقه

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧-١٨].

عمدة التمثيل السعي لتقريب المعاني وتجسيدها بصور حية مشهودة، وأنت حينما تتدبر المثلين المضروبين لهذين الصنفين من المنافقين تشعر بالمشاهد المتعددة تتوالى أمامك، بما يدعو للاستمتاع والانهماك كليًّا في المتابعة والاستغراق في التأمل، فانظر كيف صوَّر المثل الناريُّ **الفريق المنافق الصُّلب الخالص في نفاقه في المشاهد التسعة الآتية:**

المشهد الأول: ظهور قائد المنافقين ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى﴾:

تبصرنا كلمة ﴿ٱلَّذِى﴾ من قوله تعالى ذكره: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[البقرة: ١٧] بأن أحد المنافقين كان نشطًا ذا صفات قيادية، وطلب أن يكون له دور في الأرض، فأوقد له نارًا ينشر من خلالها نورًا له يجمع الأتباع من حوله، وبدأ بأقوى المؤثرين، فكوَّن معهم قيادة مشتركة هو أعلاهم فيها، ويصح أن يكون التمثيل لمجموعة نشطة قادهم أكثرهم تأثيرًا:

فلفظ ﴿ٱلَّذِى﴾ يصوّر حال هؤلاء المنافقين، وكيف صاروا قوة مجتمعة، فبداية هذا التجمع الغادر للمنافقين وشياطينهم، إنما كان نتيجة نشاط مجرم واحد ، يمتلك صفات قيادية عالية ليفسد الأرض، ويهلك الحرث والنسل، وقد ألمح ابن عاشور -رحمه الله- إلى أن الذي استوقد مفرد مراد به مشبَّه واحد؛ لأن مستوقد النار واحد، ولا معنى لاجتماع جماعة على استيقاد نار[15]، وكذلك حال المنافق عندما آمن بالكتاب طلبًا لأنواره الدنيوية والأخروية، فأضاءت أنواره ما حوله، فجاء آخرون طلبًا لتلك المنافع.

لقد أخذ هذا القيادي النشط في معسكر النفاق بزمام المبادرة وأطلق الشرارة الأولى ليذكي نار الفتنة ويؤجج لهيبها؛ فيجتمع حوله أشكاله من القوى المنافقة، ويمضي بهم في المسيرة المخذولة نحو غاية مرذولة كما قال القائل:

---

[15] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص307.

كلُّ الحوادثِ مبداها من النظرِ ومعظمُ النارِ منْ مُستصغرِ الشررِ[16]

المشهد الثاني: قائد النفاق يمتلك المهارات القيادية الفذة للتأثير على من حوله ﴿ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾:

يُبَصِّرُنا قوله: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾[البقرة: 1717] بأن انتشار النفاق بدأ بمنافق صلب عنده روح المبادرة، وصفات القيادة، فطلب إيقاد النار وبعث النور حتى تضيء ما حوله؛ ليحقق إنجازًا في حياته.

إن المشهد هنا يصور لنا المنافقين الذين خلَص نفاقهم، وتَتَامَّ إجرامهم، فبدأ بذكر قيادتهم، والسر الغريب الذي يكشفه الله ﷻ ليصور لنا كيفية تحوّل هذه القيادة من أنوار الكتاب إلى ظلمات الأهواء.. يظهر لنا ذلك في قوله: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾ [البقرة: 17]، أي: مَثلُ استضاءة المنافقين بنور الكتاب الذي لا ريب فيه كمثَل استضاءة واحد نشط ورأى الحيرة في هذه الحياة، ووجد الظلمات الفكرية تحيط به وبالناس، فانطلق يطلب أن يوقد نارًا عسى أن تفيده نورًا يضيء له الطريق اللاحب، ويكشف الظلام الحالك، ويبعده عن مظان العثرات والمهالك.. فهمنا أن هذا المستوقد ليس بخامل، ولا قاعد، ولا متكاسل، بل هو متفاعل نشط، ولكنه يوجّه طاقته لنصرة الجانب المظلم كما سيظهر لاحقًا.

بقي أن نقف مع ظلال ﴿ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾ وأن نستلهم دلالاتها:

كلمة (وَقَدَ) تَدُلُّ عَلَى اشْتِعَالِ نَارٍ، فيقال منها: وَقَدَتِ النَّارُ تَقِدُ وُقُودًا ووَقْدًا، وَاتَّقَدَتْ وَتَوَقَّدَتْ، وَالْوُقُودُ: فِعْلُ النَّارِ إِذَا وَقَدَتْ، والوَقُودُ يقال للحطب المجعول للوُقُودِ، ولِمَا حصل من اللهب، كما قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [البقرة: 24]، ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ [البروج: 5] واستَوْقَدْتُ النارَ: إذا ترشّحتُ لإِيقَادِهَا، وقد يستعار ذلك للتّلألؤ، فيقال: اتَّقَدَ الجوهرُ والذّهب[17].

فالوُقود: اشتعال النار وسطوعها وارتفاعها، والوَقود هو مادة النار أي حطبها.

ولكن أجمل وأروع ما يدل عليه (الاستيقاد، والنار) في هذا السياق اجتهاد المستوقد ليجد سبيلًا يبدد به الظلمات المحيطة، وليحقق أهم خطوة في إبصار الحقائق حوله. ويبرز جمال المعنى بصورة أكبر في إظهار فعل الاستيقاد ﴿ٱسۡتَوۡقَدَ﴾ بأنه يحب أن يتأكد من القيام بالإيقاد، فإيقاده يصاحبه الاهتمام، والقوة، والعزيمة، والصبر بما يليق أن يقوم به ليحقق أهدافه، وعملية الإيقاد بقدح الزند أو

---

16 البيت لا يعرف قائله. ينظر: ابن القيم، **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، ص 97.

17 الأصفهاني، الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، ص 529.

الإشعال عملية تحتاج إلى اهتمام وصبر، فضلًا عن أنه صوّر لنا طبيعة هذا المستوقِد ومؤهلاته القيادية، وثاقب بصره بالأمور ومعالجتها؛ "لأن قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ يقتضي أن المستوقد ذو بصر وإلا لمَا تأتى منه الاستيقاد"[18].

تعال نستلهم روعة البيان الآسر والجمال التصويري في قوله بعد ذلك: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ [البقرة: 17].

﴿أَضَآءَتْ﴾ مشتقة من: ضوأ، ويُقَالُ: ضاءَتْ وأَضاءَت أَي اسْتَنارَتْ، وصارَت مُضِيئةً.

والإضاءة: فرط الإنارة، كما يقرر الزمخشري رحمه الله[19]. وعلى ذلك فلفظ ﴿أَضَآءَتْ﴾ يُبَصِّرُنا بانتشار النور، وأن هذا النور كان عاليًا واضحًا. ومقتضى ذلك قيام الحجة على هذا الصنف المخذول، فقد أضاء لهم كتاب الله ووحيه السبيل، وجلى لهم الدرب، ووطّأ لهم السير، ولكنه ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: 18].

يرى الزمخشري –رحمه الله– أن ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: 17] مزيدة، والتقدير: فلما أضاءت النار حوله[20].

ولكن هل حقًا هي مزيدة؟ هل يستوي أن تقول: فلما أضاءت ما حوله، وأضاءت حوله؟

لا يستويان، ولا يظهر أن ﴿مَا﴾ مزيدة كما قرر الزمخشري رحمه الله، بل الصحيح ما ذكره لاحقًا من أن ﴿مَا﴾ موصولة، وبما أن الأمر كذلك توجّب أن نتطلب دلالاتها، ودلالتها هنا شمول المكان والزمان والحال.. كل ذلك اجتمع في هذا الاسم الموصول ﴿مَا﴾، والتقدير: فلما أضاءت النار الذي حوله أي المكان، والزمان، والواقع حوله، وهذا تأكيد ثان لما سبقت الإشارة إليه –آنفًا– من معنى قيام الحجة عليهم، واستبانة المحجة والطريق.

وأما لفظ ﴿حَوْلَهُۥ﴾ بعد ذلك يُبَصِّرُنا أن الضوء يشمل الجوانب التي للمستوقد على هيئةٍ شبه دائرية، وهذا يدل على المكانة المركزية للمستوقد، فهو مركز إضاءتهم، وإذا أراد لهم الخير تبعوه، وإذا أراد لهم السوء لم يخالفوه.

وانسياقًا وراء التأمل في قوله تعالى: ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾ نجدها تصوّر لنا الزمان الذي حول المستوقد، والأرض والبيئة والمكان الذي يحيط به في جهاته المتعددة، وعمّ ذلك من في الزمان والمكان من

---

[18] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص313.

[19] الزمخشري، **الكشاف**، ج1، ص73.

[20] الزمخشري، **الكشاف**، ج1، ص73.

الحاضرين الذين يمكن أن يكونوا أتباعًا له بعد ذلك؛ لأنه هو الذي استوقد النار.

ويلفت ابن القيم –رحمه الله– أنظارنا إلى سر عظيم عبّر عنه قوله: ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾، وهو أنه جعل الضوء خارجًا عنه منفصلًا، ولو اتصل ضوؤها به ولابسه لم يذهب، ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة، وكان الضوء عارضًا، والظلمة أصلية، فرجع الضوء إلى معدنه، وبقيت الظلمة في معدنها. فرجع كل منهما إلى أصله اللائق به[21].

كلمة ﴿حوله﴾ معبرة تخبرك بمدى امتداد النور ليضيء ما حول المستوقد زمانًا ومكانًا وأشخاصًا وأحوالًا، كما أنها تخبرك بأن الضوء عارض، وأنه يوشك أن يذهب فتحل الظلمة كما كانت.

المشهد الثالث: الثوب مسلم، والفعل كالقلب مجرم ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 17]:

يُبَصِّرُنا قول الله ﷻ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 17] بأن الذي استوقد كان قياديًا فريدًا في عقليته، وجمع آخرين حوله، لكنه أسرَّ المعصية كإسرار إبليس ثم أظهرها، فذهب الله ﴿بِنُورِهِمۡ﴾ أي بنور الجميع: القيادي والأتباع، ولم يقل بنوره وحده، وذهابه إما ذهاب نور الإيمان والقرآن، وإما ذهاب نور النصر والنجاح الحيوي.

تبصرنا الآية بمشهد حدث بعد كل تلك الإضاءة التي نزلت على المستوقد ومن حوله.. فجأة ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 17].

ولكن من أين الدلالة على أن ذلك حدث فجأة؟ وما سر كلمة ﴿لمَّا﴾؟

من معاني هذه الكلمة: ﴿لَمّا﴾: أنها حرف وجودٍ لوُجُود، وَبَعْضهمْ يَقُول: حرف وجوب لوُجُوب، فتدل على وقوع شيءٍ عند وقوع غيره، أي وجد هذا لوجود ذاك، ولا يلزم أن يقع الأمران في وقتٍ واحد، فقوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ هنا يتوقع السامع وقوع مفاجأة تقارن الإضاءة في الوجود لا في الزمن بالضرورة، فربما وقعت فورًا، وربما وقعت بعد ذلك.. فيأتي الجواب: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 17].

كلمة ﴿لمَّا﴾ تدل على وقوع الأمرين ربما بتفاوت في الزمن، والتفاوت في الزمن يصور لك ما يقع من ذوي النفاق، فبعضهم يؤمن بالكتاب الذي لا ريب فيه، ويستضيء به، ويسبغ على نفسه وصف الإسلام، ولكنه ليس بمؤمن قطعًا، بل اتخذ ظاهر الإسلام ضوءًا له ليتمكن من تحقيق مآربه التي لا تتحقق بوصف الكفر، فهو من البداية يضمر الكفر، ويعمل جاهدًا على إشاعة الكفر والفسق والفساد

---

[21] ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، **اجتماع الجيوش الإسلامية**، ص 21، 22.

في العالم، وهناك صنف يستضيء بنور الكتاب على الحقيقة، يصلي ويصوم ويدافع عن الدين، وربما مضى إلى ميادين الجهاد، ثم ينطفئ ذلك النور، فينسلخ منه، ويعود أقبح ما يكون في حربه الضروس ضد الإسلام.

فكلمة ﴿لَمَّا﴾ تبصرنا بكل الفئات المنافقة: فمنهم من أضمر الكفر مع دعوى الإيمان في الوقت ذاته، ومنهم من انقلب على عقبيه بعد أن كان مؤمنًا بزمن يسير أو كبير نسأل الله العافية.

وبنظرة إجمالية لمشهد استيقاد النار، وإضاءة المحيط ثم ذهاب النور، وما تلاه من لبث وتخبط في الظلمات نجد صور المشهد تمرّ متسارعة، لا تكاد تنقضي واحدة حتى تتلوها أختها؛ وذلك ينبي عن سرعة انهدام ما تبنيه عصبة النفاق، فلا يعمر طويلًا.. إنما هو الانهيار العاجل والسقوط القريب، كأنما نحن بصدد متابعة لقطات "بانورامية" تعرض على عجل في مسرح الحياة سرعان ما يخفت بريقها، ويخبو ضوؤها. يقول الشوكاني رحمه الله: "وإنما وصفت هذه النار بالإضاءة مع كونها نار باطل؛ لأن الباطل كذلك تسطع ذوائب لهب ناره لحظة ثم تخفت. ومنه قولهم: للباطل صولة ثم يضمحل"[22].

ممَّا يلفت نظرك هنا أنه نسب النور لهم، فقال: ﴿بِنُورِهِمۡ﴾.. هذه الإضافة أو النسبة تحتمل أن تقدر لها (اللام)، أو أن تقدر لها (في) فقط، ويكون التقدير: ذهب الله بنور لهم أو بنور فيهم، وهذا النور جاءهم من عند الله، لكنهم اجتهدوا لتحصيله كما رأينا.

والنور مشتق من (نَوَرَ) وهي كلمة تدل عَلَى إشراق وظهور يؤذن بالحياة، وقسم الراغب –رحمه الله– النور إلى قسمين:

الأول: النور الدُّنيويُّ وهو ضربان: معقول ومحسوس، ومما هو عامّ فيهما قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1].

فالمعقول تراه بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهية كنور العقل ونور القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة: 15]، وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام: 122].

والمحسوس بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النَّيّرة كالقمرين والنّجوم والنّيِّرات.

والثاني: النُّور الأخرويُّ مثل قوله: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ [الحديد: 12][23].

بين النور والضوء:

---

[22] الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية، والدراية من علم التفسير**، ج1، ص55.

[23] الأصفهاني، **المفردات**، ص 508.

من اللافت أن الله ﷻ قال: ﴿بِنُورِهِمۡ﴾ ولم يقل: (بضوئهم) مع قوله ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ [البقرة: 17]، وهذا يدفعنا للتعرف على الفرق بين الضياء والنور هنا وفي قوله تعالى مجده: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: 5]، فوصف الله ﷻ الشمس بالضياء، والقمر بالنور، مع أن نور الشمس أقوى، فهل هذا يعني أن الضياء أقوى من النور؟

للجواب عن هذا السؤال ينبغي أن نستحضر أن الله ﷻ قال في المقابل واصفًا نفسه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥]، وقال: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: 69]، فوصف نفسه وما يصدر عنه بـ (النور)، فبصرنا ذلك بأن الضياء ليس أقوى من النور.

ولأهل العلم في هذا التفريق بين نور كل من الشمس والقمر أقوال:

القول الأول: نقل الزبيدي –رحمه الله– أن الضَّوء هو النُّورُ، وأنهما مُتَرَادِفَانِ عِند أَئمة اللُّغَة، وجزم القَاضِي زكريّا الأنصاري –رحمه الله– بترادُفِهِما لُغَة بِحَسب الوَضْعِ، وذكر أَن الضوءَ أَبلَغُ بِحَسب الِاسْتِعْمَال.

القول الثاني: قيل: الضوء لِمَا بِالذَّاتِ كَالشَّمْسِ وَالنَّار، والنور لما بالعَرَض والاكتساب من الغَيْر كالقمر، ويشكل عليه أن الله ﷻ وصف نفسه بأنه نور السماوات والأرض، ونوره ذاتي تعالى اسمه[24].

القول الثالث: رأى الراغب –رحمه الله– أن تخصيص الشّمس بالضَّوء، والقمر بالنُّور؛ لأن الضَّوء أخصُّ من النّور، قال ﷻ: ﴿وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾ [الفرقان: 61]، ولكن الراغب لم يبين وجه الخصوصية، ولا جمع بين هذه الآية وبقية الآيات ومنها سورة النور[25].

ويرى العسكري –رحمه الله– في الفرق بينهما أَن الضياء مَا يَتَخَلَّل الْهَوَاء من أجزاء النُّور فيبيضّ بذلك، وَالشَّاهِد أَنهم يَقُولُونَ: ضِيَاء النَّهَار وَلَا يَقُولُونَ نور النَّهَار إِلَّا أَن يعنوا الشَّمْس، فالنور الْجُمْلَة الَّتِي يتشعب مِنْهَا[26].

وأمّا الزمخشري –رحمه الله– فيرى أن ذكر النور أبلغ؛ لأنّ الضوء فيه دلالة على الزيادة، فلو قيل: ذهب اللَّه بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نورًا، بينما أخبرنا الله أنه أزال النور عنهم رأسًا وطمسَه أصلًا[27]، ومال إلى هذا الفرق من بعده ابن الأثير –رحمه الله– في كتابه المثل السائر، وقرّر أن

---

[24] ينظر: الزَّبيدي، محمّد بن محمّد مرتضى، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ج1، ص318.

[25] الأصفهاني، **المفردات**، ص 508.

[26] العسكري، الحسن بن عبد الله، **الفروق اللغوية**، ص 311.

[27] الزمخشري، **الكشاف**، ج1، ص74.

نفي القليل يوجب نفي الكثير، دون العكس، ولو قال: فنفي الأصل يوجب نفي الفرع لكان أسدّ[28].

ويظهر لي أن الدقة تقتضي ألا نقول مثل ما أشار إليه الزمخشري -رحمه الله- من أن "الضَّوْء أَقوى من النُّور"، بل نقول: الضياء مرحلة من مراحل النور، ولذَا شَبَّه اللَّهُ ﷻ هُدَاه بِالنورِ دون الضَّوْءِ لأنه الأصل الذي ينبثق عنه بقية أنواع الإنارة، وهنا أرد قول من فرق بينهما بأن الضياء أقوى، ولم يصف الله ﷻ كتابه به؛ لأنه لو وصف به لما ضَلَّ أَحدٌ.. هذا رأي ليس بسديد؛ لأنه وصف التوراة بأنها ضياء فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقد ضلّ أصحابها فيها.

ويمكن أن نزيد هذا المعنى وضوحًا بأن نقول: الضوءُ فَرْعُ النُّور، فالنور هو الأصل، وَالضياء فرع وهُوَ الشُّعاع المُنتشِرِ المستطير. فالضوء فيه الدلالة على النور وزيادة، فهو أخص من النور، وعدمه لا يوجب عدم النور[29]، فلو قال: ذهب الله ﷻ بضوئهم لكان المعنى يعطي ذهاب تلك الزيادة، وبقاء ما يسمى نورًا، فكل ضوء نور، وليس كل نور ضوءًا، وقد رضي الطّيبي -رحمه الله- ذلك، واستدلَّ بقوله تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يُونُس: 5].

فالغرض من قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: 17]، إنما هو إزالة النور عنهم أصلًا[30]، ورأى ابن القيم -رحمه الله- مثل هذا، حيث قال: "لو قال: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط، دون الأصل. فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهابًا بالشيء وزيادته، وأيضًا فإنه أبلغ في النفي عنهم، وأنهم من أهل الظلمات، الذين لا نور لهم، وأيضًا فإن الله تعالى سمّى كتابه نورًا، ورسوله نورًا، ودينه نورًا، وهداه نورًا، ومن أسمائه النور والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله"[31].

المشهد الرابع: النفاق الخفي يكشفه جواب ﴿لمَّا﴾ الخفي:

فيحتمل أن يكون جواب ﴿لمَّا﴾ في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] ظاهرًا مذكورًا، كما يحتمل أن يكون محذوفًا:

---

[28] الموصلي، نصر الله بن محمد، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ج2، ص167.

[29] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج3، ص402.

[30] ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، (2/ 167)، وعقب ابن أبي الحديد في الفلك الدائر على المثل السائر (4/ 231) ناقدًا ناقمًا مغتاظًا، ولم يوفق في نقده، فقال: "إن هذا الرجل قد شحن كتابه بأمثال هذه الترهات، وأطال فيها وأسهب وأعجب بها، وظن أنه أتى بغريب. وهذه المعاني قد صنفت فيها الكتب الكثيرة، وتكلف الناس من قبله في استنباط أمثال هذه الوجوه الغامضة والمعاني الخفية من القرآن العزيز".

[31] ابن القيم، **اجتماع الجيوش الإسلامية**، ص 21.

فالجواب الظاهر المتبادر للذهن هو قوله جلَّ مجده: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 17]، ويقوّي هذا المعنى أن القول بالإظهار أولى من الإضمار، كما قرر ذلك أبو حيان –رحمه الله– حين قال: "الذي يقتضيه ترتيب الكلام وصحته ووضعه مواضعه أن يكون ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ هو الجواب، فإذا جعلت غيره الجواب مع قوة ترتّب ذهاب الله بنورهم على الإضاءة، كان ذلك من باب اللغز؛ إذ تركت شيئًا يبادر إلى الفهم، وأضمرت شيئًا يحتاج في تقديره إلى وحي يسفر عنه؛ إذ لا يدل على حذفه اللفظ مع وجود تركيب ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾"[32].

وأما القريب من الظاهر، فقد ذكر الزمخشري[33] –رحمه الله– أنه يجوز أن يكون الجواب محذوفًا، ويفهم من عبارته تقويته لذلك، ويكون تقديره: فلما أضاءت ما حوله عمل الشقي قائد المنافقين على محاصرة النور وإيقافه، والتلاعب به، وتابعه على ذلك أتباعه، وتكون جملة: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 17] كلامًا مستأنفًا تجيب على من يسأل: هذه النار أضاءت ما حوله، فتلاعب به، وصد عن الاهتداء بنورها؛ فماذا حدث؟ فيقال له: ذهب اللَّه بنورهم.

إن هؤلاء لما أذهبوا حقيقة الانتفاع بالكتاب المنير الذي لا ريب فيه، وعملوا على منعه من بث أنواره ذهب الله ﷻ بمنافعه منهم، فلم يعودوا يشعرون بها.. إن ما سبق يصور لنا أن الله الحقَّ المبين عاقبهم على جرائم باطنة مستترة يعلمها منهم، يعاقبهم على فسادٍ اقترفوه، استدعت آثامه أن يذهب الله بنورهم الذي كان يمكن أن ينيروا به طريقهم في الدنيا والآخرة، لدرجة أنه لم يبق معهم من نور لا إله إلا الله شيء.

الحكمة في التعبير بـ(ذهب) دون (أذهب) في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾:

ولاحظ أن الله ﷻ قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 17]، ولم يقل: (أذهب نورهم)؛ لأن التعبير الأول أبلغ. قرر ذلك الزمخشري ومَن بعده كالرازي والبقاعي، وابن عاشور رحمهم الله[34]، فقد أشعر هذا التعبير ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَانَ مَعَهُمْ بِمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ عِنْدَمَا اسْتَوْقَدُوا النَّارَ فَأَضَاءَتْ، ثم أخذ اللَّه ﷻ نورهم وأمسكه؛ لأنه لو أذهب نورهم لربما التمسوا نورًا من غيرهم، لكنه ذهب به أي أَخَذَ نورهم وَأَمْسَكَهُ ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ﴾ [فَاطِر: 2]، فلم يعد بإمكانهم أن يجدوا نورًا لذواتهم؛

---

[32] الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف، **البحر المحيط**، ج1، ص60.

[33] الزمخشري، **الكشاف**، ج1، ص73.

[34] ينظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج1، ص74، والرازي، **مفاتيح الغيب**، ج2، ص314، ويكثر الرازي من النقل عن الزمخشري –رحمهما الله– دون عزو. وينظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص310..

فالله ﷻ منع أشخاصهم من أن يفيدوا نورًا من أنفسهم ومن غيرهم، ويلفت البقاعي –رحمه الله– النظر إلى معنى آخر، حيث جاء التعبير القرآني بِالذَّهابِ بِهِ دُونَ إذْهابِهِ؛ لِيَدُلَّ نَصًّا عَلى أنَّهُ سُبْحانَهُ لَيْسَ مَعَهم[35].

بين النور والنار:

قال الله جلّ ذكره: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 17]، ولم يقل بنارهم ليطابق أول الآية حيث ذكر النار، فقال: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17]، هذا أمر لافت يستحق أن نتوقف عنده أيضًا:

يرى ابن القيم –رحمه الله– أن النار فيها إشراق وإحراق، فلما قال الله ﷻ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ يكون الذي ذهب منها الإشراق وهو النور، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وهو الناريّة[36]، ويظهر لي أن بقاء الناريّة يشير إلى انتفاعهم الدنيوي بمنافع النار، واستعمالها في نواحي السوء لأنفسهم ولغيرهم، ولو قيل بإثبات المعنيين كان وجيهًا؛ إذ لا تعارض بينهما، فبينما يرتفقون بما أبقي لهم ممّا استوقدوه من النار، فإنهم مع ذاك يتقلبون على مثل جمر اللظى بما يورثه مرض بواطنهم ونفاقهم من قلق وحيرة، واضطراب منغص مكدر.

توالى بعد ذلك وصف واقع هؤلاء المنافقين: فقد جمع الله ﷻ في وصفهم أربعة أمور:

الأول: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾. والثاني: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾. والثالث: ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾. والرابع: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ﴾.

والنتيجة: ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾.

فلنستعرض هذه الأوصاف الأربعة والنتيجة في مشاهد تالية.

المشهد الخامس: ملء الفراغ بالظلمات ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ [البقرة: 17]:

وَالظُّلْمَةُ: النُّقْصَانِ، وهي ليست عدم النور، بل هي عَرَضٌ ينافي النور، فإذا جاء النور أزالها، والله ﷻ تركهم هنا في ظلمات، وليس في ظلمة واحدةٍ، فهم يتخبطون ويفسدون، ويظنون أنهم يصلحون.

وقوله: ﴿وَتَرَكَهُمۡ﴾: بمعنى طرح وخلى، أي: خلاهم من معونته ونصره وتأييده في ظلمات لا يَنْفُذُ فِيها بَصَرٌ.

ذهب ابن عاشور –رحمه الله– إلى أن قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ [البقرة:

---

[35] البقاعي، **نظم الدرر**، ج1، ص119.

[36] ابن القيم، **اجتماع الجيوش الإسلامية**، ص 22.

17] تقريرٌ لِمَضْمُونِ قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 17]؛ لِأَنَّ من ذهبَ نورُهُ بَقِيَ في ظلمةٍ لا يُبصِرُ، والقصدُ منهُ زيادةُ إيضاحِ الحالةِ التي صاروا إليها، فإنَّ للدَّلالةِ الصَّريحةِ من الِارْتسام في ذهنِ السّامعِ ما ليس للدَّلالةِ الضِمْنيَّة، فحقيقة الجملة الجديدة إطناب لزيادة البيان[37]، وابن عاشور –رحمه الله– يعني أن قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ تدلّ بمفهومها على أنهم في ظلمات؛ فجاءت جملة ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾ لتكون صريحة في هذه الدلالة.

ويظهر لي أن قوله: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ [البقرة: 17] تفيد معنى أصليًّا، وليس معنى تكميليًا، فالظلمات ليست ذهاب النور، فالإنسان قد يذهب نوره لكنه يبقى محايدًا فلا نور عنده ولا ظلمة، وأراد ربنا أن يكشف حقيقة هذا النوع الصُّلب من المنافقين، وأنهم لم يكتفوا بأن يتركوا أنوار القرآن، حتى صاروا في ظلمات ينظرون إلى الحياة من خلالها، ويريدون أن يوقعوا الناس فيها؛ لأنهم يظنون أنها النور الحقيقي.

فذهاب النور يعني عدم إمكان الرؤية، أما الظلمات في واقعها القائم فمادة مستقلة وطاقة مستقلة، والاكتشافات العلمية تذهب إلى أن المادة المظلمة لها كتلة تفوق كتلة المادة العادية خمس مرات، وأنها تشكِّل مع الطاقة المظلمة ما نسبته 95. 1٪ من المحتوى الكلي للكون[38].

فهؤلاء المنافقون لم يطفأ نورهم فقط، بل المشكلة هنا ما بعد ذهاب النور؛ فلم تقتصر حياتهم على أن الله ﷻ ذهب بنورهم، بل غشيتهم ظلمات متعددة.

إفراد النور وجمع الظلمات:

وممَّا هو جدير بالتدبر كذلك إفراد النور، وجمع الظلمات ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ [البقرة: 17]، والحق أن من عادات القرآن ومعهوده إفراد النور، وجمع الظلمات كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وأما دلالة هذه العادة فقد تعرض لها المتدبرون من أئمة التحقيق.

فقد قرر علماؤنا –رحمهم الله– أن الحق واحد، وصراط الله المستقيم واحد لا يوصل إليه سواه منذ آدم إلى خاتم النبيين محمد عليهم الصلاة والسلام، وأما الظلمات فهي كثيرة يمكن للإنسان أن يجدها

---

[37] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص310.

[38] انظر: تريفل، جيمس (James Trefil): **الجانب المظلم للكون**، ترجمة رؤوف وصفي، المركز القومي للترجمة، ط1، 2016م.

من كل الجهات، فمنها الأهواء ومنها الشهوات، ومنها الشبهات، ومنها البدع، وغير ذلك. ومصادرها متعددة تنبعث من النفوس، ومن شياطين الإنس والجن، ومن زخارف الدنيا، ويصوّر النبي ﷺ ذلك تصويرًا دقيقًا، فعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنهما، قَالَ: "كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطًّا هَكَذَا أَمَامَهُ، فَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ»، وَخَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَخَطَّيْنِ عَنْ شِمَالِهِ قَالَ: «هَذِهِ سَبِيلُ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الأَوْسَطِ»، ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]"[39].

ويظهر لي أن الله ﷻ جَمَع (ظُلُماتٍ) ليُبَصِّرُنا بتنوع الظلمات التي يعيشون فيها، ويطلعنا على كثرة هذه الظلمات وقوتها، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأنعام: ٦٣]، وقَوْلِ ﷺ: «الظُّلْمُ ظُلُماتٌ يَوْمَ القِيامَةِ»[40]، ويقرر ابن عاشور –رحمه الله– هذا، فيقول: "فَإنَّ الكَثْرَةَ لَمّا كانَتْ في العُرْفِ سَبَبَ القُوَّةِ أطْلَقُوها عَلى مُطْلَقِ القُوَّةِ"[41].

فالجمع يفيد القوة كما يفيد التنوع، فمثلًا: هناك ظلمة الكُفر، وظلمة الإفساد في الأرض، وظلمة الكذب، وظلمة الاستهزاءِ بالمؤمنين. وهم في هذه الظلمات لا يبصرون نورهم؛ لأن الله ﷻ قد ذهب به، ولا يبصرون بأنوار غيرهم لرفضهم إياها، وصارت الظلمات تحيط بهم من كل جانب.

المشهد السادس: مشهد البصر المفقود ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾:

هذا هو الوصف الواقعي الثالث لحالهم، فلم يذهب الله ﷻ بنورهم فقط، ولم يتركهم في ظلمات فقط، بل هم لا يبصرون أيضًا. المعتاد أن الإنسان في الظلمات لا يبصر فلماذا قال ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾؟

قد يقول قائل: قال الله ﷻ ذلك للتأكيد، لكننا نبحث عن المعنى الأصلي قبل التأكيدي؛ فالقول بالتأسيس أولى من القول بالتأكيد، وهنا ترى أن الإنسان إذا غشيته الظلمات فما زال يحتمل أنه يبصر كحال المخلوقات التي تعيش في ظلمات البر والبحر، وهي قادرة على الرؤية والحركة وفق هذه الرؤية، ومثل الخفاش الذي لا يرى في النور بل في الظلام، ولما سمعنا قول الله ﷻ: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ [البقرة: 17] قد يقول قائل: فيحتمل أنهم يبصرون بطريقة ما، فتأتي هذه التكملة لتخبرك أنهم ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾.

---

[39] الشيباني، أحمد بن حنبل، **المسند**، رقم 15312، ج3، ص397، وحسّنه الأرناؤوط لغيره.

[40] البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، كتاب الخصومات، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، رقم 2447، ج3، ص129، والقشيري، مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم 2579، ج4، ص1996، واللفظ للبخاري.

[41] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص311.

ويغمرنا التدبر في قول الله ﷻ: ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾، فنجد أن الله ﷻ لم يخبرنا: لا يبصرون ماذا، فالفعل (يبصر) يتعدى إلى المفعول، تقول: يبصرون البيوت، ولكن المفعول هنا -كما يقرر الزمخشري -رحمه الله- ساقط من قبيل المتروك المطَّرح الذي لا يلتفت إلى إخطاره بالبال، لا من قبيل المقدّر المنْوي، كأنّ الفعل غير متعدٍّ أصلًا، فَنُزِّلَ الفِعْلُ مَنزِلَةَ اللّازِمِ، ولا يُقدَّرُ لهُ مفعولٌ كأنَّهُ قِيلَ: لم يعودوا يستعملون بصرهم، فذهبت القدرة على الرؤية فيها[42]، فقوله: ﴿ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ أي: لا إبصارَ لَهم أصلًا ببصرٍ ولا بصيرةٍ.

ومعنى آخر نستلهمه من حذف المتعلق، وهو المفعول به هنا في قوله: ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾.. ذاكم المعنى هو نفي عموم المبصرات، فلا يبصرون شيئًا بإطلاق[43]، وهذا من لازم القول بالمعنى الذي قبله؛ ذلك أن من ذهبت قدرته على الرؤية لم يبصر شيئًا بالكلية.

ونحن قد نرى المنافقين يبصرون بأعينهم، ولكن ما فائدة أن يبصروا كل شيء دون أن يبصروا الحق المبين الذي أمامهم؟ فهم في ظلمات من جهة، ولا يبصرون من جهة أخرى. وإنك لتعلم أن الذي يرى الأشياء بحاجة إلى توفر أمرين معًا: البصر، والنور المنعكس من الأشياء، وتعتمد قدرة الإنسان على الرُّؤية على الضَّوء المنعكس من الأشياء إلى العين، فلا يوجد نور حولهم ليعكس الأشياء التي ينبغي أن يروها، ولا العين ترى أهم ما يجب أن تراه في الدنيا.

المشهد السابع: من الدنيا إلى الآخرة ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾ ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]:

فهذه الحالات الثلاث: ذهاب النور وحلول الظلمة، وعدم الإبصار صارت حالات ملازمة في الدنيا والآخرة، وهذا المثل مدهش؛ إذ يصح أن تتصوره في الدنيا، ويصح أن تتصوره عند الموت، ويصح أن تتصوره في الآخرة:

فأما في الدنيا: فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ضرب الله ﷻ للمنافقين مَثَلًا، فقال: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ [البقرة: 17] أي يُبصرون الحق ويقولون به، حتى إذا خَرجوا به من ظلمة الكفر أطفؤوه بكُفرهم ونفاقِهم فيه، فتركهم في ظلمات الكفر، فهم لا يبصرون هدى ولا يستقيمون على حق".

وأما عند الموت: فعن قتادة -رحمه الله- قال: "وإن المنافقَ تكلم بلا إله إلا الله، فأضاءت له في

---

[42] الزمخشري، **الكشاف**، ج1، ص75.

[43] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص312.

الدنيا... فلما كان عند الموت، سُلبها؛ لأنه لم يكن لها أصلٌ في قلبه، ولا حقيقةٌ في علمه".

وأما في الآخرة: فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: "﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17]: هذا مثل ضربه الله ﷻ للمنافقين أنهم كانوا يعتزُّون بالإسلام. . . فلما ماتوا سلبهم الله ﷻ ذلك العزَّ، كما سلب صاحب النار ضوءَه ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ يقول: في عذاب"[44].

وهنا تستحضر قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد:13].

المشهد الثامن: الإصرار على الدمار وعدم التراجع عنه: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: 18]:

فالمنافقون الخلّص متشبعون بفساد القلب، وغرور النفس، فهم في نفاقهم ﴿صُمٌّۢ﴾ عن سماع الإرشاد، ﴿بُكْمٌ﴾ عن قول الخير، ﴿ عُمْىٌ﴾ عن رؤية النور، والنتيجة: أنهم ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الاستقامة على قولهم: ﴿آمنا﴾ عندما نطقوا بكلمة الإيمان، فأضاءت أنوارها ما حولهم، فلا يشعرون بأن نورهم قد ذهب، ويصرون على قيادة البشرية إلى الشقاء.

تفاجئك هذه الآية بوصفها، فقد جاءت كلمات ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ مرفوعة باعتبارها أخبارًا لمبتدأ محذوف، والتقدير: هم صُمٌّ.. هم بُكمٌ.. هم عُميٌ لا يرجعون، أو أولئك صُمٌّ، أولئك بُكمٌ، أولئك عُميٌ.

هذه الجمل الثلاث المترابطة ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ تبيّن أنهم عندما ذهب الله ﷻ بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون بقوا مصرين على ما هم فيه... وهم في كل ذلك لا يشعرون بعظم جرمهم وفداحة خطئهم وكبر مصيبتهم.. لا يشعرون أن هناك خللًا مدمرًا يجب أن يصلحوه، والذي أنبأنا أنهم لا يشعرون هذه الجمل الثلاث: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ وهذا يعني أنهم يظنون أنهم على صواب في طريقتهم وأفكارهم، فيزداد واقعهم سوءًا.

ثم وصفهم الله ﷻ وصفًا جديدًا، فقال: ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، والفاء للتفريع على ما سبق، فتبين نتيجة الصفات الثلاث أي لا يرجعون إلى أي خيرٍ أو مكانٍ يمكن أن يوقدوا فيه النار؛ ليجدوا النور من جديد.

﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى حالهم عندما استوقدوا نورًا، فقد أذهب الله ﷻ نور المعرفة القرآنية منهم،

---

[44] ينظر: الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج1، ص321-325..

وتركهم في ظلمات الكفر والفساد والعدوان والعصيان لا يبصرون الحق حقًّا، ولا المعروف معروفًا، ولا المنكر منكرًا، وهم مع ذلك ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة: 18].

المشهد التاسع: الاستماتة في نشر ظلمات الكفر والفسق والفساد ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾:

إنها نتيجةٌ توضح لنا أن المنافقين لهم أهدافهم في الحياة، وهي تتلخص في نشر ظلمات الكفر والفسق والإفساد في الأرض؛ ولذلك يصرّون على ألا يرجعوا إلى أدنى خير مما أعلنوه عندما قالوا: آمنا، فالمنافقون اعتنقوا النفاق لا ليدفعوا عن أنفسهم القتل، بل لينفّذوا أقسى المؤامرات وأقصاها وأخبثها، مما لا يستطيعه أقوى المتآمرين من الكفار ضد الإسلام والمسلمين.

فهذه الفئة المخذولة المرذولة قد تسفّلت، وتشبّعت بالمنكر، ومرنت على النفاق والخداع والتضليل، وألفت أساليب الروغان، وعزمت أمرها أن تواصل مشوارها المشؤوم حتى النهاية؛ فليس الرجوع والأوبة في حسبانها، إنها مصممة على مواصلة الدرب والسقوط في الهاوية، والهروب من حال إلى حال أشد قتامة وأحلك ظلامًا.

تلحظ أن بعض الآراء التفسيرية تأخذك بعيدًا عن البصائر القرآنية، وإن رجعت إلى الآيات ابتداءً من الآية الثامنة، ومضيت تقرأ فيها تستلهم منها التعامل مع الواقع، فإنك تجد أنها لا تشير إلى أن المنافقين اعتنقوا النفاق خوفًا من القتل، بل تجد التركيز على كذبهم وخداعهم وإفسادهم وتآمرهم، وهنا لا بأس لو استدركت على بعض علمائنا إفراطهم في التأكيد على أن المنافقين أرادوا فقط حماية أنفسهم من القتل، وهذا صحيح، ولكن من أي جهة؟

فمثلاً: أعلن عبد الله بن أُبي إسلامه بعد معركة بدر، وليس ذلك ليعصم دمه، فهو ما زال إلى وقته محترمًا في قومه بصورة إجمالية، لكنه علم أنه لن يفسد في الأرض وهو على حالة الشرك، وإفساده سيكون أقسى وأشنع وأكثر تأثيرًا إذا أعلن إسلامه، واستتر بالنفاق. وتقرير المعنى على هذا النحو يوسع المدارك ويبصرها بأصناف الفئات والقوى النفاقية، فلا يقتصر بتصويرها على حال واحد، أو حصرها بفئة واحدة ألجأها ضعفها لسلوك النفاق والتمذهب به وحسب، فليس الأمر كذلك.. إن من عُصب النفاق ونوابته ما يكونون في رأس هرم المجتمعات، ومن ذوي التأثير والقرار والتمكن، ولكنهم قدروا –خاب تقديرهم– أن خدمة مشروعهم النفاقي البائس سيكون على صورة أكثر تأثيرًا لو أنهم خادعوا المجتمع، وتمظهروا بالصلاح والإصلاح، وإن كان في بواطنهم ودوافعهم خلاف ذلك بالكلية.

أبرز الصفات النفاقية التي أبرزها المثل الناري للنفاق الصلب:

1) يغلب على المنافق النشاط في محاربة الحق، وأكثر المنافقين حربًا للكتاب الذي لا ريب فيه من يمتلك المهارات القيادية الفذة للتأثير على من حوله.

2) يصيب المنافق المجتمع المسلم حوله بالارتباك في كيفية التعامل معه لأنه يلبس ثوب الإسلام

واسمه، ولكنه يضمر أبشع أنواع الإجرام.

3) تظهر بوادر النفاق عندما يرى المرء ذهاب النور القرآني من التصرفات العملية، ولكن ذلك لا يعني الحكم على كل واحد بأنه منافق.

4) يعيش المنافقون في ظلمات حالكة من الكفر والفسق، ولذا لا يرجعون إلى خير، وإن أظهروا المجاملة المحدودة لبعض المظاهر الإسلامية، فإنهم يفعلون ذلك لزيادة الإرباك في التعامل معهم.

5) الظلمات الدنيوية التي يعيشها المنافقون ستصحبهم إلى دار الجزاء حيث لا يمكنهم أن يبصروا صراط اجتياز جهنم، وهناك يتركهم الله في ظلمات لا يبصرون، ولا يرجعون، فلا تبقى إلا الهاوية، فنعوذ بالله من ذلك المصير.

6) يصر المنافقون الخلص على الشر، ولا يتراجعون عنهم، فهم ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة: 18]، فالمنافقون الخلّص متشبعون بفساد القلب، وغرور النفس.

7) ولذلك يستميتون لنشر ظلمات الكفر والفسق والفساد، فاعتنقوا النفاق لا ليدفعوا عن أنفسهم القتل، بل لينفّذوا أقسى المؤامرات وأقصاها وأخبثها.

المبحث الثاني: المثل المائي يظهر البيان التصويري القرآني لفريق النفاق الثاني: المترددون والمراوغون من المنافقين:

قال الله تعالى: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: 19-20].

صور لنا المثل السابق (الناريّ) دخائل صنف من المنافقين في هيئة مشاهد متتابعة مجسدة، وتنقلنا الآيات إلى المشاهد المحسوسة لصنف آخر من المنافقين يجسده المثل (المائيّ)، وهي اثنا عشر مشهدًا:

المشهد الأول: تعدد البدائل النفاقية، وتبادل الأدوار ﴿أَوۡ﴾:

تُبرز ﴿أَوۡ﴾ في الساحة نوعًا ثانيًا من المنافقين، هو النوع المتردد المراوغ سواء أكان قياديًّا أم فردًا عاديًّا، ويتبين ذلك في الآية من عدة وجوه:

أولًا: كلمة ﴿أَوۡ﴾ في قول ربنا ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ﴾ للتفصيل التنويعي، أي: مثلوهم بهذا أو بهذا، لا على

الاقتصار على أحد الأمرين[45]، فيفصّل المثل المضروب هنا هذه الفئة الغامضة تفصيلًا مبينًا، ويبين حقائقها في الواقع حتى تستطيع أن تكتشفها مهما راوغت، فقد أضاءت كلمة ﴿أَوۡ﴾ الوعي الإنساني ببيان صفات صنفٍ ثانٍ من المنافقين غير الصنف الأول المذكور في المثل الناريّ. هذا التفصيل يزيدك بيانًا عن هذه الفئة الخفية الخطيرة، ويكشف حقيقتها كشفًا بعد كشف، ويوضح ما يتعلق بنفسياتها وأفعالها وتصرفاتها إيضاحًا بعد إيضاح.

وليس هذا المثل لزيادة الإيضاح للمثل السابق، بل ذهب ابن كثير -رحمه الله- إلى أن هذا المثل للإخبار عن صنف آخر من المنافقين[46]، ورجّحه السيد رشيد رضا رحمه الله[47]، ورأى أن ما ذهب إليه أكثرُ المفسرين من أنهم صنف واحد ليس صحيحًا، ويعضده أن القول بالتأسيس أو من التوكيد؛ فإن بصائر القرآن المجيد تنير فؤادك بأن المنافقين ليسوا صنفًا واحدًا عندما تراهم أو تخالطهم، فبعضهم خالص النفاق، وبعضهم متردد بين النفاق والإيمان، وبعضهم مراوغ، وبين هذين النوعين مراتب.

ثانيًا: ﴿أَوۡ﴾ تفيد التَّخْيِيرِ أَيْ شَبِّهُوهُمْ بِأحد المثلين بما يناسبهم، ويكون المعنى: تأكد من أن المنافقين ينتمون إلى أحد صنفين:

أي ترى بعض المنافقين فتستطيع أن تصنفهم بيسر، فبعضهم ينتمون إلى فئة النفاق الصلب (العلمي العقدي الخالص) وهم أصحاب المثل الناريّ، وبعضهم ينتمون إلى فئة النفاق المتردد (العملي المشوب بشيء من الإيمان)، وهم أصحاب المثل المائيّ، وتخير أنت عند التطبيق الواقعي ما يناسب المثلين.

ثالثًا: كلمة ﴿أَوۡ﴾ تثمر الإبهام وإثارة الشك عند الناظر:

ويكون المعنى: تنظر أيها الإنسان في حال هؤلاء المنافقين، فتشك فيهم فبعضهم تشبهه بالمثل الناريّ، وبعضهم تشبهه بالمثل المائيّ، وبعضهم تشك إلى أي الجهتين ينتمي، فشمل ضرب الأمثال الحالات المختلفة.

وقد شعر علماؤنا بقوة كلمة ﴿أَوۡ﴾ في قوله ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ﴾ فإن بعض المنافقين تحتار في تصنيفه، وتشك فيه مع يقينك أنه يفعل أفعال النفاق، لكنك تتساءل: هل هو منافق صُلب لا يمكن أن يرجع عن نفاقه أم منافق متردد مراوغ يمكن التأثير عليه لعله يتوب، أو لا بد من الحذر الزائد منه لأنه أكثر روغانًا من المنافق الصلب؟ فهذا من معاني ﴿أَوۡ﴾ أي: ترى بعض المنافقين وتشك إلى أي الصنفين ينتمي،

---

[45] ابن عطية، عبد الحق بن غالب، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج1، ص101.

[46] ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص189.

[47] رضا، محمد رشيد، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، ج1، ص146.

فقد ذكر العُكبريُّ – رحمه الله–[48] أن لـ﴿ أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ أربعة أوجهٍ، منها: أَنَّهَا لِلشَّكِّ، أي يشك النَّاظر في حال المنافقين، فلا يدري أَيُشَبِّههم بالمستوقِد، أو بأصحابِ الصَّيِّبِ، وهذا كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصَّافَّات: 147]، أي يَشكُّ الرَّائي لهم في مقدارِ عددهم.

المشهد الثاني: الاضطراب الدائب، والتردد الشهواني ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾:

فهذا النوع من المنافقين متردد بين الإيمان والكفران، وبين الإخبات والطغيان، فتراه أحيانًا مبصرًا يطلق التصريحات الصادقة الرائعة، ويقوم بالأفعال الصالحة الطيبة، ثم ما يلبث أن ينتكس، فكأنه ليس ذلك الذي سار في هدى سابق، ولا الذي صدر عنه نورٌ فائق.

﴿أَوْ﴾ عَطَفَتْ لفظَ (صَيِّبٍ) على ﴿ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ﴾ بتقديرِ (مَثَلِ) بين الكافِ وكلمة (صَيِّبٍ)، وتقدير الكلام: مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا، أو كمثل صيب، وثمرة ذلك كما يقرر ابن عاشور أن الله أعاد حرف التشبيه إشارةً إلى اختلافِ الحالَيْنِ المُشَبَّهَيْنِ، وهم في الغالبِ لا يُكَرِّرُونَهُ في العَطْفِ، فأراد أن يخبرك أن من سيصفهم في مثل الصيب غير من وصفهم في المثل الناريّ.

فانظر جمال التمثيل: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: 19]، فَقَوْلُهُ: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ تَقْدِيرُهُ أَوْ المنافقون مثلهم كَفَرِيقٍ ذِي صَيْبٍ[49].

والصّيِّب[50] هو المطر على وزن الفَيْعِل، ومثل الصيب: الصَّوْبُ، وَهُوَ نُزُولُ الْمَطَرِ، وقال الشاعر[51]:

فسقى ديارَكَ غيرَ مفسدِها صَوْبُ الرّبيعِ ودِيمَةٌ تهمِي

واختار الله ﷻ هذه الكلمة على كلمة (مطر) مع أنها معروفة؛ لأن كلمة (صيّب) تؤدي غرضًا أقوى وأعمق، من قولك: صَاب المطر يَصوب صَوبًا، إذا انحدَر وَنزَل بشدة نحو جهة محددة، كأنه مصوَّبٌ على الناس يصيب ما وُجِّه له، كالسهم إذا أصاب هدفه، كما قال علقمة بن عَبَدَة الفحل[52]:

فَلا تَعْدِلِي بَيْنِي وَبين مُغَمَّرٍ سُقِيتِ رَوَايَا الْمُزْنِ حيث تَصُوبُ

---

[48] العكبري، عبد الله بن الحسين، **التبيان في إعراب القرآن**، ج1، ص34. وينظر: الطيار، رزاق عبد الأمير، **معاني الحروف الثنائية والثلاثية** (ص: 79).

[49] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص316.

[50] وهو في الأصل "صَيْوِب"، ولكن الواو لما سَبقتها ياء ساكنة، صُيرتا جميعًا ياءً مشددةً، كما قيل: سيِّد، من ساد يسود، وجيِّد، من جاد يجود، وكذلك تفعل العربَ بالواو إذا كانت متحركة وقبلها ياء ساكنة، تصيّرهما جميعًا ياءً مشددةً، ويطلق الصَّيِّبُ أيضًا على السَّحَاب ذُي الصَّوْبِ أي المطر.

[51] البيت لطَرَفة بن العبد. ينظر: ابن العبد، طَرَفة، **ديوان طَرَفة بن العبد**، ص 79.

[52] البيتان لعلقمة بن عبدة في ديوانه، الفحل، علقمة بن عبدة، **ديوان علقمة بن عبدة**، ص22، 29.

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ صَوَاعِقُهَا لِطَيْرِهِنَّ دَبِيبُ

والمزن السحاب، ويعني: السحاب حين يصوب المطر منها نحو وجهته في الأرض، وأصل الكلمة قدم من (صَوَبَ)، وتنبئك هذه الكلمة بوصول شَيْءٍ إلى مكانه المناسب الصحيح وَاسْتِقْرَارِهِ قَرَارَهُ، وَمِنْ ذَلِكَ أنك تقول: أنا على صوَاب فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، كَأَنَّهُ أَمْرٌ نَازِلٌ مُسْتَقِرٌّ قَرَارَهُ[53].

المشهد الثالث: صيب كثيف شديد الوقع ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

ربما لفت نظرك أن الله ﷻ قيد هذا الصيب بأنه ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، فكما عرفنا كلمة ﴿صيب﴾ ينبغي أن نعرف معنى كلمة السماء:

السَّمَاء: كل ما علاك فأظلك، من السمو وهو الارتفاع والعلو، فتطلق السماء على السقف كما قال جلّ مجده: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: 15]، وتطلق السماء على الْجَوِّ الْمُرْتَفِعِ فَوْقَنَا الَّذِي نَخَالُهُ قُبَّةً زَرْقَاءَ، وَعَلَى الْهَوَاءِ الْمُرْتَفِعِ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إِبْرَاهِيم: 24]، وَتُطْلَقُ السماء عَلَى السَّحَابِ، وعلى المطر[54]، يقال: ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم، وقال الشاعر وهو يعني: المطر[55]:

إذا سقطَ السماءُ بأرضِ قومٍ رعيناهُ وإنْ كانوا غِضابًا

ويستوقفنا هنا أنه أتى بقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مع أن (الصيب) لا يكون إلا من السماء، وفائدة هذا القيد ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يمكن أن يكون قيدًا إيضاحيًا كاشفًا' ويمكن أن يكون قيدًا تأسيسيًا مميِّزًا، وخلاصة المعنى: **قَوْلُهُ:** ﴿**مِنَ السَّماءِ**﴾ **قيد يميز الصيب،** فلا يمكن الاستغناء عن هذا القيد، ويفيدك الزمخشري –رحمه الله– فائدة عظيمة بهذا القيد[56]، إذ يرى أن كلمة ﴿ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تصور لنا أن الصيب ليس قليلاً محدودًا، بل هو صيب مخصوص كثيرٌ كثيفٌ قد جاء مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِ الْجَوِّ المحيط مع علوه إِذَا قُلْنَا: إِنَّ التَّعْرِيفَ فِي السَّمَاءِ يستغرق جميع جوانب السماء التي يعيش تحتها هذا الفريق الذي يماثل المنافقين في تفكيره وحركته.

ومما يقرر هذا المعنى كذلك أن كلمة ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ معرفة، فنفى أن يتصوَّب من سماء، أي من

---

[53] ابن فارس، أحمد بن زكريا، **مقاييس اللغة**، ج3، ص317.

[54] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص318.

[55] الجوهري، إسماعيل بن حماد، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ج6، ص2382. والقائل هو: معاوية بن مالك. ينظر: البصري، علي بن أبي الفرج، **الحماسة البصرية**، ج1، ص79.

[56] الزمخشري، **الكشاف**، ج1، ص82.

أفق واحد من بين سائر الآفاق؛ لأنّ كل أفق من آفاقها سماء، كما أن كل طبقة من الطباق سماء في قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ [فصلت: 12][57]، ولذا قال الشاعر[58]:

فأَوْهِ لذكراها إذا ما ذكرتها ومِنْ بُعْدِ أَرْضٍ بَيْنَنا وسَمَاءِ

ويظهر لي أن استنباط الزمخشري -رحمه الله-[59] في مكانه عند النظر إلى السياق العام؛ فإن السياق العام لهذا التمثيل يوحي بكثرة الصيب وغزارته حتى صحبته الظلمات والرعد والبرق.

فكثرة الماء النازل أورثت ظلمات في الجو، كما ترى في المطر الكثيف الذي يجعل النهار ليلًا.

وتشعر هنا بقوة التصوير القرآني لحياة هذا الفريق من المنافقين مع أنوار القرآن المجيد، فكما يأتي الصيب من جهات متعددة كثيفًا متعدد التصريفات في معانيه كذلك يأتي القرآن من كل النواحي ليعالج شؤون الحياة، فكلما حاول المنافقون منع تدفقه من جهة جاء من جهة أخرى، والمنافقون يرون بعض جهاته مؤذية لهم، فيحاربونها لكن عقولهم وقدراتهم تكل عن حرب شاملة ضده تؤدي إلى اختفاء نوره من الحياة، ولذا يرغمون على إبقاء المصاحف، ومسابقات القرآن مثلًا، ويظنون أن حربهم الضروس ضده في الجهات الأخرى كافية، فإذا بأنوار القرآن مع الزمان تنتصر عليهم انتصار الصيب الكثيف على كل من يحاول منعه من الوصول إلى الأرض.

المشهد الرابع: الجمال والوبال ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: 19]:

فالهدى القرآني مثل الصيب وهو الماء المصوب على الأرض ليغيث الأبدان والنفوس، وتصحبه ظلماتٌ كثيفة لغزارته وكثافته، وتنوع جهات نزوله، وبدلًا من رؤية الجمال الكلي يرى المرضى الظلمات وبالًا عليهم.

قد تدارسنا -آنفًا- المشاهد التي رأيناها في الكلمات الآتية: ﴿أَوْ﴾ ﴿كَصَيِّبٍ﴾ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، ويفترض أنّ مشهد الصيب يُفرِح ولا يُفزِع، فهو يحيي النفوس كما قال الله ﷻ: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ﴾ [الروم: 50]، ولكننا نشاهد في تصوير الآية شيئًا آخر.

---

[57] ورأى ابن عاشور أن هذا الاستنباط فيه بعد؛ إذ لم يعهد دخول لام الاستغراق إلا على اسم كلي ذي أفراد دون اسم كل ذي أجزاء، فيحتاج لتنزيل الأجزاء منزلة أفراد الجنس – ولا يعرف له نظير في الاستعمال – فالذي يظهر لي – إن جعلنا قوله ﴿مِن السماءِ﴾ قيدًا للصيب – أن المراد من السماء أعلى الارتفاع، والمطر إذا كان من سمت مقابل وكان عاليًا كان أدوم، بخلاف الذي يكون من جوانب الجو ويكون قريبًا من الأرض غير مرتفع. ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص318.

[58] البيت ليس منسوبًا. ينظر: الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ج6، ص2225.

[59] الزمخشري، **الكشاف**، ج1، ص82.

فالصيب هو المطر المصوّب على الناس، وفي هذا الصيب لغزارته وكثافته واستمراره أربع ظواهر طبيعية مقارِنة:

الأولى: **ظلماتٌ**: جمع ظُلمة.

الثانية: **رعدٌ**: وهو الصوت الذي يُسمع من السحاب، فعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ تَرَكَ الْحَدِيثَ، وَقَالَ: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد:13]، ثُمَّ يَقُولُ: "إِنَّ هَذَا لَوَعِيدٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ شَدِيدٌ"[60].

الثالثة: **برقٌ**: يُقَالُ: بَرَقَ السَّحَابُ (كنصر) بَرْقًا وَبَرِيقًا إذا لمع، قَالَ الْخَلِيلُ رحمه الله: "الْبَرْقُ وَمِيضُ السَّحَابِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَتَلَأْلَأُ لَوْنُهُ فَهُوَ بَارِقٌ يَبْرُقُ بَرِيقًا، وَيُقَالُ لِلسُّيُوفِ بَوَارِقُ لأنها تلمع لمعانًا سريعًا، فالبرق هو الضوء الخاطف السريع الذي يُرى في السماء"[61].

والرابعة: **صواعق**. وستكون لنا وقفة مع كل واحدة من هؤلاء الأربع على حدة.

لكن مما يلفت الانتباه هنا أولًا أنه جمع كلمة (ظلمات) بينما أفرد بعدها الرعد والبرق، وإنما ذلك لينقلك مباشرة إلى ظلمات متعددة نتجت عن ثلاثة أسباب:

أولها: غزارة الصيب واستمراره حتى يسبب تلك الظلمات.

وثانيها: كثافة السحب التي ينزل منها، وغالبًا تكون من النوع الركامي لتزداد الظلمات التي تسببها، وهذه تسبب قتامةً ضخمةً في الجو بسبب تلبد الغيوم.

وَثالثها: ظَلَام اللَّيْلِ.

وجاءت هذه الظواهر ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ [البقرة: 19] مُنَكَّرات، لأن المراد أنواعٌ منها، كأنه قيل: فيه ظلمات داجية، ورعد قاصف، وبرق خاطف.

فإن قيل: لِمَ لمْ يجمع الرعد والبرق كما جمع الظلمات أخذًا بالأبلغ؟ كقول البحتري يخاطب السحاب[62]:

يَا عَارِضًا مُتَلِّفعًا ببُرُودِهِ ... يَخْتالُ بَيْنَ بُرُوقِهِ ورُعُودِهِ

لأنهما في الأصل مصدران فروعي حكم الأصل، ويمكن أن يراد بهما الحدث كأنه قيل: وإرعاد

---

60 البخاري، محمد بن إسماعيل، **الأدب المفرد**، باب إذا سمع الرعد، رقم723، ص381، وصححه الألباني. **تخريج الكلم الطيب**، ص157.

61 ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج1، ص211.

62 البحتري، **ديوان البحتري**، ص 693.

وإبراق[63]، ويظهر لي أن الإفراد للرعد والبرق مقصود في التصوير القرآني فالظلمات دلّت على كثافة الصيّب وغزارته، وكلمة ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ دلت على عمومه وتعدد جهاته، ولكنك لا ترى أفراد الرعد والبرق بتلك الكثرة فهما في ناحيةٍ منه، وناب محلهما في الإفزاع والكثرة ما هو أقوى منهما: الصواعق، ولذا جمعها، وكذلك عندما تنظر إلى القرآن المجيد ترى غيثه عامرًا، وترى تهديده، أو زواجره، أو ما لا يرغب المنافقون في سماعه يمثل الرعد، ولكن التهديد والوعيد في القرآن لا يكون عامًّا، كما أن الرعد والبرق في الآية جاءا مفردين، فكأنهما محدودان، فإن المنافقين يرون ضوءًا في القرآن يستضيئون به كالبرق الذي يكون في جهة وليس عامًّا، ولأن كثرة البروق قد تسبّب ضوءًا مستمرًا، فتتضح الطريق لهم، فإفراد البرق، والرعد في الآية أقوى من الجمع، وأنسب في التصوير لحالة القرآن مع المنافقين؛ فالقرآن فصيّبه كصيّب يحيي الأرض، وما يبصره المنافقون مما يرتاحون له كالبرق يظل محدودًا، وما يرونه فيخيفهم كالرعد يظل في زاوية قليلًا ليس كثيرًا.

المشهد الخامس: صيبٌ مهدِّد ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾:

المنافقون يرون في الصيب القرآني تهديدًا كما يرى السائرون في ظلمات الصيب المائي تهديدًا يظهر في الصواعق النازلة، فيحاول المنافقون التحصن بما يقدرون عليه من الاحتياطات الأمنية والعسكرية والمخابراتية والإعلامية، وبعلاقاتهم المحلية والخارجية، وبالنشطاء المتعاونين على الإجرام، وقد اعتنقوا عقيدة استحوذت عليهم ملخصها أن أهم التهديدات التي يخافون منها إنما جاءت من القرآن، ويُبَصِّرُنا الله ﷻ بكل هذا في قوله: ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ [البقرة: 19].

تبصرنا هذه الصورة التمثيلية بأنهم شعروا بالرعب من الخير النازل من السماء، واتخذوه بمثابة التهديد لهم، فجعلوا أصابعهم في آذانهم من الصواعق بدلًا من أن يستفيدوا من الصيب ما يحيي النفوس والأبدان، وهنا ذكر الله ﷻ الظاهرة الطبيعية الرابعة المصاحبة للصيب، وهي الصواعق، فقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ متعلق بـ﴿يَجۡعَلُونَ﴾، أي: من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم في آذانهم، كقولك: سقاه من العَيْمة -بِفَتْحِ العَيْنِ وسُكُونِ الياءِ- أي من أجل شدة شهوته إلى اللبن[64].

و﴿ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ جمع الصاعقة: وهي الصَّوت الشَّديد من الجوِّ الذي ينزل على هيئة قصفة رعد تنقض معها قطعة من نار سريعة قوية، وتنقدح بصورة شررٍ كهربائي هائل شديد القوة لا تمرّ بشيء إلا

[63] الزمخشري، **الكشاف**، ج1، ص83.

[64] ينظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج1، ص85.

أتت عليه، إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود.

وتحدث الصاعقة بسبب التفريغ الكهربائي في الجو، والناتج عن اكتساب السحاب لشحنة كهربائية زائدة واختلاف بين الشحنات الكهربائية السالبة والموجبة، وشكل الصاعقة شبيه بالشرارة الضخمة، ثم يترتب عليها عذاب، أو موت، أو نار فقط، وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء آثارها.

وتصور شدة خوفهم ورعبهم، حيث قال الله ﷻ: ﴿يَجْعَلُونَ﴾.. تصور المشهد، فهم لا يجعلون رؤوس أصابعهم في آذانهم؛ فالله لم يقل (أناملهم) بل ذكر الأصابع؛ ليبين لك شدة الصاعقة واستمرار صوتها المرعب مدة زائدة على المعتاد حتى كادوا أن يدخلوا أصابعهم بالكلية في آذانهم رعبًا وخوفًا.

فانظر لهذه الصورة المعبرة: يجعلون أصابعهم، وليس أناملهم.. وهل يغني عنهم أن يغرسوا أصابعهم في آذانهم لو جاءت الصاعقة؟!

ذلك يبصرك بأن جميع احتياطاتهم الأمنية والثقافية والإعلامية، وعلاقاتهم الداخلية والخارجية لن تغني شيئًا عندما يأتي أمر الله ﷻ،كما أتى لفرعون من قبل.

دلالة تقديم الرعد على البرق:

من المعلوم أن الضوء أسرع بكثير من الصوت، والترتيب أن البرق يظهر أولًا ثم يعقبه الرعد، ولكن القرآن لا يجعلك تستسلم للصورة المعتادة؛ لأنه يريد أن يوقظ بصرك وبصيرتك للسبب الذي ذكر لأجله هذه الصورة. إنه تشبيه المنافقين.. فصورة الصيّب وما يصحبه ليست مقصودة لذاتها، فهو لا يصف لك الظواهر الطبيعية وإنما يشبه حال المنافقين مع القرآن بما تراه في الطبيعة، فتعال ننظر العلاقة، وسبب تقديم الرعد:

ظهر في الصورة العامة في هذه الآية وما بعدها أن المنافقين يخافون من الرعد والصواعق، ويُفيدون من ضوء البرق ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ فهذا وصف عام، ثم عاد فقال: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: 19] فأشعر بخوفهم من الصواعق، ثم وصف إفادتهم من البرق، فقال: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: 20] فهنا أفادوا من البرق، بينما الصواعق التي يصحبها الصوت المزلزل يخافون منها، والله تعالى مجده يبين لنا أن هذا الصنف من المنافقين يخافون من القرآن بصفة عامة خوفهم من الرعد والصواعق؛ ولذا قدّم الرعد، وأخّر الصواعق ، فهي الرابعة في الوصف، وذكر البرق مؤخرًا في الترتيب بعد الرعد، ثم ذكر فائدته لهم كما يفيدون من القرآن نادرًا. فتقديم الرعد لبيان أن خوفهم من القرآن أكثر وأعمّ من استفادتهم منه الذي يمثله البرق.

وهنالك ملحوظة دقيقة في الآية: فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، ولكن

الصواعق لم تقضِ عليهم، ولم يذكر الله ﷻ ذلك عنهم؛ لأن آجالهم لها وقت محدد، ولعل في هذا إشارة إلى ألا يُقضَى عليهم، بل ترسل عليهم صواعق الإنذار التي تفضحهم، ويُصبَر عليهم حتى يتوبوا أو يهلكوا، لكن المثلين يظهران ضرورة التعامل الإعلامي الذي يفضح أفعالهم دون تحديد أسمائهم.

المشهد السادس: إحاطة غير قابلة للاختراق ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

إن الاحتياطات الأمنية والمخابراتية والعسكرية التي يتحصن بها المنافقون لا يمكن أن تحميهم من الإحاطة الإلهية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

جاءت هذه التكملة تحذيرًا للمنافقين وهم الصنف الأسوأ من الكافرين، وتهديدًا لجميع الكافرين، وتطمينًا للمؤمنين بأن المنافقين مهما حاولوا إطفاء نور الكتاب الذي لا ريب فيه، ومهما شوهوا الصيّب النازل ليحيي الأرض، ومهما خافوا من القرآن، ورأوه مثل الصواعق لكنهم لم يصعقوا، فإن ذلك لا يعني أن الله ﷻ غافلٌ عن إجرامهم ولعبهم، بل هو محيطٌ بهم وبسائر الكافرين.

المشهد السابع: البرق الخاطف ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾:

فالْبَرْقُ هو النور السريع القوي المنبعث في السماء، ويمثّل النور القرآني، ولشدة لمعانه يكاد يخطف أبصارهم؛ لأنهم لا يريدون أن يصلح الحياة.

﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ﴾ لقُوَّةِ لَمعانه وإبهار شُعاعِهِ وشِدَّةِ حَرَكَتِهِ وإسْراعِهِ وقوة أثره أن يخطف البصر، ولذا يهابه من يراه أو يشعر به، ويخاف منه أن يؤذيه، وكذلك شعور المنافقين بالنسبة للكتاب الذي لا ريب فيه؛ إذ يكاد أن يخطف أبصارهم، والخطف الأخذ بسرعة وحدّة واقتدار، والسلب بخفية وقوة، وقال سبحانه: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: 67].

فقوله: ﴿يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 20] يعني يأخذها أخذًا سريعًا دون أن يشعروا بتلك الحركة لشدة لمعانه وسرعته وقوته، فالبرق يكاد أن يصيبهم بالعمى؛ بدلًا من أن ينتفعوا به، فأعينهم لم تعتد أن ترى النور الحقيقي.

إن حياتهم في ظلمات الشهوات المحرمة، والمؤامرات المجرمة، والتجارة المدمرة للبشرية، والخطط التي تقتل الأبرياء، وتقيم حفلات التعذيب تحت كل سماء، فإذا ما شهدوا شيئًا من النور القرآني كاد أن يخطف أبصارهم.

المشهد الثامن: التلاعب المصلحي ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾:

فإذا وجدوا فيه ما يحقق لهم الشهوة والشهرة قبلوه بصورةٍ مؤقتة، وخدعوا العالم بذلك.

يصوّر الله ﷻ لنا في هذا المشهد الاستفادة العارضة لهم من حالة الصيب، فيقول: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾ [البقرة: 20].

فكلمة ﴿كُلَّمَآ﴾ تُفِيدُ عُمُومَ مَدْخُولِها، و(مَا) كافَّةٌ لِكُلِّ عَنِ الإضافَةِ.

فتراهم يتبعونه إن لاح لهم، فهو شيءٌ من الشفاء القرآني يحتاجونه، لكنهم يجعلونه مجرد أمرٍ عارضٍ مؤقت؛ إذ يعودون إلى ظلامهم، وهنا تعلم القيمة الكبيرة التي أضافتها هذه الجملة على التصوير الكلي، فضوء البرق يخفّف لهم الظلمة، ويخفّف الهدى القرآني الظلمة النفسية الحالكة التي تتسم بها نفسياتهم، لكنهم لا يعدون ذلك خيرًا محضًا، فعلى الرغم من أن هذا النور البارق يضيء لهم الطريق ليسيروا فيه، لكنهم فقط يستفيدون منه إضاءة تلك اللحظة لا إضاءة الحياة، فهم يفيدون من القرآن إضاءة تلك اللحظة في حياتهم، ثم لا يجعلونه مصدر الإضاءة في معظم حياتهم.

المشهد التاسع: القيام في الظلام ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾:

فالمنافقون ينظرون إلى القرآن نظرتهم إلى الظلام المخيف، فإذا عارض أهواءهم وشهواتهم وحقدهم وحسدهم أظلم عليهم، فقاموا أي ثبتوا ولم يسيروا في ضوئه؛ لأنهم لم يعودوا يرونه كالبرق بل يجدون الظلمة في التعامل معه، ويعودون إلى ظلمهم كما يعيش هؤلاء في ظلماتهم.

رأينا المنافقين في المشهد السابق يمشون في ضوء القرآن المجيد للمْحة من الزمن، كما يمشى التائه في ضوء البرق للمْحة من الزمن، ولكن مشيهم على هذه الحالة لا يمثل إلا زمنًا قليلًا؛ إذ سرعان ما يذهب ضوء ذلك البرق، ويعودون إلى الظلمات التي تحيط بهم، وعندما تقيس الزمن الذي يلمع فيه البرق أثناء انصباب الصيّب، مع مجة الزمن الذي لا يلمع فيه هذا البرق تجد أن وقت لمعانه محدود قليل، وفي المقابل تشعر حينها بصورة الوقت الطويل الذي يكون الظلام فيه مخيمًا على الأرجاء.

ومعنى ﴿قَامُواْ﴾ وقفوا وثبتوا في مكانهم، وكلمة ﴿قَامُواْ﴾ مدهشة فيدخل في القائم: المتحير الذي لا يسير في ضوء البرق القرآني، ويدخل فيه الذي يعيش في الظلمات فيأبى السير والحركة في ضوء الشرع القرآني، فيقوم ويتردد، فربما تحرك إلى جهة نور البرق الذي أضاء له، وربما بقي على خطته الحيوية في التآمر على البشرية، والكيد للإسلام من خلال الألفاظ المخادعة.

هكذا المنافقون مع القرآن: في لحظة الإنارة البارقة يتّبعون منه ما ينتفعون به في أمور دنياهم، لا ما يوصل إلى هدفٍ حقيقي من أهدف القرآن؛ لأنهم لا يرون الدنيا به، بل يرونه جزءًا يسيرون فيه ضمن أهدافهم لا ضمن الأهداف التي حددها ذلك النور؛ إذ يوشك أن ينطفئ، وكما يتوقف الذين يسيرون في ضوء البرق بعد أن رجعوا إلى حالة الظلمات، كذلك يسير المنافقون في ضوء القرآن قليلًا، ثم يتوقفون راجعين إلى ظلمات إجرامهم عندما يطفئون إنارته أو تنطفئ عليهم، فلا يرون حساب الآخرة، ولا رضا الله، ولا صلاح الحياة التي جاء بها القرآن.

المشهد العاشر: النفاق: فن المراوغة الحذرة ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾:

فالتمثيل المائي يظهر الصنف المنافق المراوغ قلقًا حذرًا يحسب الحسابات المتعددة، ويخاف أن يكتشف الآخرون حقيقته.

إنهم يشعرون أنهم يعيشون مع عالم الصيّب–وهو الكتاب الذي لا شك فيه– في خطر كبير، وينظرون إلى الأحداث حولهم بصورة دقيقة، وتحقيق بالغ، ولا يرون في الصيب النافع إلا مصائب تحل بهم، وكوارث تنزل عليهم، وترى الحذر والخوف والقلق واضحًا من الصورة التي يرسمها لك قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩]، ولا ينظرون إلى الصيّب النافع إنما ينظرون إلى ما يصاحبه مما لا يوافقهم، فيرون في كل ما يتعلق بالكتاب الذي لا ريب فيه الخطر عليهم.. يرون في القرآن خطرًا كأنه الموت، وحتى في الآيات العظيمة التي لا تحاسبهم يرونها مثل البرق الخاطف ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: 20].

إنه –جل في علاه– يُجَلِّي لنا حال المترددين من زاعمي الإيمان، وهم من يظهرون الإيمان، لكن دعواهم يصيبها الخلل الجزئي أو الكلي، فيرتدون بقلوبهم بعد أن آمنوا بألسنتهم، وبعضهم يظلون على إسلامهم لكنهم لا يحكّمون الإسلام في أهوائهم وحياتهم؛ ولذلك يمشون خائفين أن يُفضحوا.

المشهد الحادي عشر: مشهد القوة المحيطة: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾:

تبصّرنا بأنه لو شاء الله ﷻ لحرمهم الانتفاع بحواسهم التي لم يستخدموها إلا الاستخدام الخاطئ، ولو شاء أن يهلكهم على إفسادهم لفعل:

انظر لقوة التصوير في المثل، فقوة البرق متفاوتة، ويمكن أن يزيدها الله ﷻ حتى تبلغ منتهاها بالنسبة للبشر؛ إذ يقول الله ﷻ: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: 20]، وكذلك قوة الرعد والصواعق بلغت منتهاها واشتد وقعها؛ إذ يقول: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البقرة: 19] لولا أن الله ﷻ حماهم من أن تستأصلهم وتدمر حواسهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: 20].

ومفعول (شاءَ) محذوف، لأن الجواب يدل عليه، والمعنى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الَّذِي لَهُ المشيئة الكاملة النافذة، والقدرة المطلقة، والعَظَمَةُ الباهِرَةُ ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ بأن يزيد في قصف الرعد فيذهب بسمعهم ولَمْ يُغْنِهِمْ سَدُّ آذانِهِمْ ﴿وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ بأن يزيد في وميض البرق فيذهب بأبصارهم ولَمْ يحمها أن يشيحوا بها عنه.

إمهالٌ لا إهمال:

فهؤلاء الذين استعملوا سمعهم وأبصارهم في الإجرام يستحقون أن تسلب منهم حواسهم، ولكن الله

ﻷ لم يشأ ذلك؛ لأن حقيقة الدنيا قائمة على الابتلاء، والاختبار، ولها أجلٌ مسمّى يقيم الله ﻷ عليهم الحجة حتى لا يحتجوا بشيء يطعن في العدالة الإلهية القادمة؛ يوم يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون.

المشهد الثاني عشر: القوة المطلقة القاهرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾:

تختم المشاهد بمشهد القوة المطلقة التي تبين سبب المشيئة الكاملة النافذة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: 20] كما أنه يرسل الصواعق أحيانًا فتأخذ بعض خلقه، فلا يغرهم بقاؤهم أو تقلبهم في البلاد مع سفكهم للدماء وإفسادهم في الأرض.

يوضح لك هذا المشهد أن قدرة الله ﻷ تحيط بهم، ولكنك ترى قدرة الله ﻷ المذهلة في خلق البروق والصواعق والصيب في مكان واحد هو السحب، ولا ترى فيه عندما تقترب منه إلا مجرد هواء.. أفلا تعجب من تَكَوُّن كل هذه الظواهر ممّا يشبه الفراغ، ثمّ إنّ الله ﻷ يسلط الرعد والبرق والصواعق على من يشاء، ويرسل الصيّب ليغيث الناس أو ليعذبهم كما يشاء، أولا ترى هنا عجائب الرحمة السابغة الشاملة، ومظاهر القوة المعجزة المذهلة؟!

يبدو لك هنا جلال أول موضع في القرآن لاسم الله (القدير)، وكيف ارتبط بالظلمات والرعد والبرق والصواعق، حيث يجمع لك الإجلال والتعظيم والتخويف والردع، ومن المعلوم أنه إذا أراد إنسان أن يبيّن قدرته فعل أمرًا مشاهدًا يبيّن قدرته، ولله المثل الأعلى؛ فالله ﻷ أظهر لنا قدرته الهائلة من خلال هذه المخلوقات التي تصاحب رحمته ويخافها الخلق فكيف بغضبه الصرف؟!

ولهذا تجد أن الله ﻷ خلق الأضداد في السحاب: فيه يجتمع الصيّب والنار، والضوء والظلمة.. إن الله ﻷ يريك قدرته التي لا يحيط بها عقل.

المَثَلان (الناريّ، والمائيّ) يقرران حقيقة مطلقة:

قرّر الله ﻷ في الآية الأولى من المثل المائيّ إحاطته بالكافرين ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 19]، وفي الثانية قدرته على كل شيء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: 20]، والشيء لفظ مذكّر، وهو أعمّ العام؛ فنبّه بذلك الذين تنتابهم الشكوك والوساوس أن تقلب الكافرين والمنافقين في البلاد لا يعني قدرتهم على الخروج من ملك الله ﻷ، فهم يحسبون بما يأتونه من نشر الكفر العالمي أنهم قد سبقوا الله ﻷ، ولكنه محيط بهم فمهما عتوا فهم في مكانٍ محدد لا يمكنهم الخروج منه، ولو أراد الله ﻷ إهلاكهم لفعل؛ فهو على كل شيء قدير، لكن السنن الكونية قامت على أن دار الدنيا دار ابتلاء وتداول وتدافع، ودار الآخرة دار جزاء.

المَثَلان دعوةٌ لمراجعة الذات:

قد رأيت أن الله ﷻ ذكر نوعين من النفاق، ليدلنا على تنوع أصنافهم، وليحذرنا أن نقارف من شعبة من النفاق ولا نشعر، فقد حذر النبي ﷺ المسلمين من أن يقارفوا الشعب العملية للنفاق بعد أن يبرأوا من النفاق الاعتقادي، فقال: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا؛ إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[65]، فأضف إلى ذلك ما رأيته من الصفات التي سبقت، وقلّب في حياتك، فربما يذهلك تزكية نفسك عندما تقرأ هذه الآية، فاسمع وصف ابن أبي مليكة –رحمه الله– لخيار الصحابة ﷺ يقول: " أَدْرَكْتُ ثَلاَثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ"[66].

ويتناول المثل المائيّ من يزعم أنه يسلم وجهه لله ﷻ ثم يتخذ البشر أربابًا من دون الله، ويتناول من يتعبد تعبد المخبتين ثم يصر على التحاكم إلى الطواغيت، ويتناول من تغشاه ظلمات البدع من كل مكان، ويتخبط فيها تخبط المظلم الهالك الحيران فهو "مِنَ التَّقَالِيدِ وَالْبِدَعِ فِي ظُلُمَاتٍ حَوَالِكَ، وَمِنَ الْخَبْطِ فِيهَا عَلَى حَالٍ لَا تَخْلُو مِنَ الْمَهَالِكِ، وَهُوَ فِي تَخَبُّطِهِ يَسْمَعُ قَوَارِعَ الْإِنْذَارِ الْإِلَهِيِّ وَيَبْرُقُ فِي عَيْنَيْهِ نُورُ الْهِدَايَةِ، فَإِذَا أَضَاءَ لَهُ ذَلِكَ الْبَرْقُ السَّمَاوِيُّ سَارَ، وَإِذَا انْصَرَفَ عَنْهُ بِشُبَهِ الضَّلَالَاتِ الْغَرَّارَةِ قَامَ وَتَحَيَّرَ لَا يَدْرِي أَيْنَ يَذْهَبُ، ثُمَّ إِنَّهُ لَيُعْرِضُ عَنْ سَمَاعِ نُذُرِ الْكِتَابِ وَدُعَاةِ الْحَقِّ كَمَنْ يَضَعُ إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ حَتَّى لَا يَسْمَعَ إِرْشَادَ الْمُرْشِدِ، وَلَا نُصْحَ النَّاصِحِ، يَخَافُ مِنْ تِلْكَ الْقَوَارِعِ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَمِنْ صَوَاعِقِ النُّذُرِ أَنْ تُهْلِكَهُ"[67]، وبذا اتسع المعنى القرآني ليشمل هنا كل من طرأت عليه مثل هذه الصفة العجيبة التمثيل: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾ [البقرة: 20]، فالقرآن بيانه عام. . وبعضنا يجعلها مخصوصة بأقوام بأعينهم مع ظهور الهداية القرآنية لكل مناحي الحياة.. ألا ترى كم بعث ذلك من سلوكيات خاطئة في أنفسنا، وعبث بأرواحنا حتى صرنا نقترف الخطيئة من أفعال المنافقين ثم نبرئ أنفسنا من تبعاتها، مع أنها بريدٌ يجرنا رويدًا رويدًا إلى سلوكياتهم، فيوشك أن تحيط بنا ونحن ما زلنا نزكي أنفسنا.

على أنه ينبغي أن نوقن أن اقتراف الكذب والخيانة لا يعني أن من وقع فيها قد صار منافقًا؛ بل ينظر

---

65 البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم34، ج1، ص16، ومسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب خصال المنافق، رقم 58، ج1، ص58 واللفظ للبخاري.

66 البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، ج1، ص19، وقد وصله ابن حجر في **تغليق التعليق على صحيح البخاري**، ج2، ص52.

67 رضا، **تفسير المنار**، ج1، ص142.

في سيرته وحاله، فقد كاتب حَاطِب بْن أَبِي بَلْتَعَةَ المُشْرِكِينَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ، قَالَ: "إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ "[68].

أبرز الصفات النفاقية التي أبرزها المثل المائي للنفاق المراوغ:

1) تتعدد البدائل النفاقية، ويحدث بينهم تبادل في الأدوار.
2) يصيب المنافقين المراوغين الاضطراب الدائب، والتردد الشهواني.
3) يمثل القرآن المجيد الصيب الكثيف بخيره، فيرى المنافقون ضوءًا فيه يستضيئون به كالبرق فيرتاحون له، لكنهم يشعرون في الوقت ذاته برعده أي بوعيده، ويخافون مما يرونه صواعق فيه، ولذا يظل موقفهم الغالب الخوف منه، ويرون في الصيب القرآني تهديدًا لهم.
4) ينسون أن الله يحيط بهم إحاطة غير قابلة للاختراق.
5) إذا شهدوا شيئًا من النور القرآني كاد أن يخطف أبصارهم.
6) إذا وجدوا في القرآن ما يحقق لهم الشهوة والشهرة قبلوه بصورةٍ مؤقتة، وخدعوا العالم بذلك.
7) يتقن المنافقون فن المراوغة الحذرة، ففي لحظة الإنارة البارقة يتّبعون منه ما لا يوصل إلى هدفٍ حقيقي من أهدف القرآن؛ لأنهم لا يرون الدنيا به، بل يرونه جزءًا يسيرون فيه ضمن أهدافهم لا ضمن الأهداف التي حددها ذلك النور.
8) ينسى المنافقون أن الله لو شاء لأهلكهم، ولكنه يمهلهم إلى أجلهم، ولا يعني ذلك أنه يهملهم.

وأشار هذا المثل إلى الطريقة المثلى في التعامل مع هذا الصنف من المنافقين، وذلك بالاستمرار في وعظهم، وتذكيرهم، وفضح مخططاتهم، وكشف خفايا نفوسهم، دون أن يصل ذلك إلى قتلهم، فالصواعق التي أرسلت عليهم، ما كانت لتقتلهم، بل لتوقظهم ولتنبههم على خطورة ما هم عليه.

وظهر في البيان التصويري في هذين المثلين التشخيص وجعل الصورة المتخيلة كالمحسة، وتصوير الحالة النفسية للمنافقين بصورة دقيقة، كما أحسسنا بالحركات السريعة المتتابعة التي تصورها أحداث هذين المثلين.

الخاتمة:

أسجل في ختام هذا البحث أهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها:

---

[68] البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، ج4، ص59.

النتائج:

1) أظهر البحث معالم منهجية القرآن في الكشف الدقيق لأصناف المنافقين؛ حيث وهبنا الله صورةً واضحةً وتوصيفًا دقيقًا لأحوال فريقين من المنافقين، لا يكاد يخلو منهما زمان ومكان من خلال ضرب المثلين: الناريّ، والمائيّ، وبذا تحقق الهدف الأول من البحث

2) صوّرت دلالات المثلين دخائل نفوس طائفة النفاق، ودوافعها لسلوك هذا السبيل، وكيفية نشأة قوتهم، وهو ما حقق الهدف الثاني من أهداف البحث

3) للقرآن الكريم وجوهٌ من البيان التصويري يوظفها في تجسيد صفات المنافقين وخصالهم الذميمة على وجه بالغ من الدقة والإحكام والتناسب، وهو ما حقق الهدف الثالث من أهداف البحث

4) أظهر البحث عمومًا، والملخص الذي ذكر في آخر كل مبحث كيف يعيننا المثلان على فهم ظاهرة النفاق المعاصر، وبذا تحقق الهدف الرابع من أهداف البحث، فالتأمل في بصائر القرآن الكريم وفي أمثاله المضروبة عن المنافقين وأصنافهم يوفر فرصةً عاليةً لتبصير الناس بالقضايا الجوهرية التي تلامس واقعهم، كما أنها تقدم لهم الحلول المناسبة للتصدي لهذه القوة الخفية "قوة النفاق".

5) في الملخص الذي ذكرته في آخر كل مبحث أظهر البحث ملخص الصفات العلمية لفريقي النفاق، فاستحضارها يمدنا بعون في كيفية التعامل مع هذا القوة المدمرة في المجتمع.

التوصيات:

1) جعل الرؤية القرآنية هي الأساس في التعامل مع من يظهر صفات المنافقين، والتمسك بمعالم الاهتداء الواردة في المثلين المضروبين لهما في كتاب الله: المثل الناريّ، والمائيّ.
2) الحذر الشخصي لكل مسلم من أن يقع في تلك الصفات وهو لا يشعر.
3) الكتابة في المبتكرات القرآنية في الصور التي قدمتها الآيات في مجالات الحياة.
4) الانطلاق من أمثال القرآن وبصائره لصنع الحلول المناسبة للتصدي لـ"قوة النفاق" وأعوانها، والانتصار عليهم.
5) أوصي بالبحث في بدايات الابتعاد عن استحضار البصائر القرآنية في التعامل مع ظاهرة النفاق في المجتمع المسلم.
6) أوصي بالكتابة في كيفية التطبيق الواقعي المباشر للبصائر القرآنية في التعامل مع ظاهرة النفاق.
7) أوصي بجمع الآيات المتعلقة بالأمثال مطلقًا، واستلهام المنهج التحليلي التصويري لكل منها، والنظر في الجامع بينها للوصول إلى سر ضرب الأمثال في موضوعاتها دون غيرها.

قائمة المصادر والمراجع:

1) الأصفهاني، الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، (مكة: مكتبة نزار مصطفى الباز، د.ط، د.ت).

2) البحتري، **ديوان البحتري**، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، (القاهرة، دار المعارف، ط3، د. ت).

3) البخاري، محمد بن إسماعيل، **الأدب المفرد**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط3، 1409هـ / 1989م).

4) البصري، علي بن أبي الفرج، **الحماسة البصرية**، تحقيق: مختار الدين أحمد، (بيروت: عالم الكتب، د.ط، د.ت).

5) البغاء، مصطفى ديب، مستو، محيي الدين ديب، **الواضح في علوم القرآن**، (دمشق: دار الكلم الطيب، ط2، 1418هـ/1998م).

6) البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ / 1995م، د.ط).

7) تريفل، جيمس(James Trefil)، **الجانب المظلم للكون**، ترجمة: رؤوف وصفي، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ط1، 2016م).

8) الجرجاني، علي بن محمد، **التعريفات**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1405هـ، د.ط).

9) الجوهري، إسماعيل بن حماد، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1407هـ/ 1987م).

10)ابن حجر، أحمد بن علي، **تغليق التعليق على صحيح البخاري**، تحقيق: سعيد عبد الرحمن موسى القزقي، (بيروت: المكتب الإسلامي، دار عمار، الأردن، عمّان، ط1، 1405هـ).

11)أبو حيان، محمد بن يوسف، **البحر المحيط**، (دار الفكر، د.ط، د.ت).

12)الرازي، محمد بن عمر، **مفاتيح الغيب**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط3، 1420هـ).

13)رضا، محمد رشيد، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1990م).

14)الزَّبيدي، محمّد بن محمّد مرتضى، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: مجموعة من المحققين، (دار الهداية، د.ط، د.ت).

15)الزجاج، إبراهيم بن السري، **معاني القرآن وإعرابه**، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، (بيروت: عالم الكتب، ط1، 1408هـ / 1988م).

16)الزركشي، محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة:

مكتبة دار التراث، ط3، 1404هـ/ 1984م، د.ت).

17)الزمخشري، محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل**، ضبط وتصحيح: مصطفى حسين أحمد، (القاهرة: دار الريان للتراث، ط 3، د.ت).

18)السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1394هـ/ 1974م).

19)الشوكاني، محمد بن علي، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، (بيروت: طبعة دار الفكر، د.ط، د.ت).

20)الشيباني، أحمد بن حنبل، **المسند**، (القاهرة: مؤسسة قرطبة، د.ط، د.ت).

21)الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/ 2000م).

22)ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، د.ط، 1984م).

23)ابن العبد، طرفة، **ديوان طرفة بن العبد**، شرحه: مهدي محمد ناصر الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط3، 1423هـ/2002م).

24)عتر، نور الدين محمد، **علوم القرآن الكريم**، (دمشق: مطبعة الصباح، ط1، 1414هـ/ 1993م).

25)العسكري، الحسن بن عبد الله، **الفروق اللغوية**، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، (القاهرة: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت).

26)العكبري، عبد الله بن الحسين، **التبيان في إعراب القرآن**، تحقيق: علي محمد البجاوي، (دار إحياء الكتب العربية، د.ط، د.ت).

27)ابن فارس، أحمد، **مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر، 1399هـ/ 1979م، د.ط).

28)الفراهي، حميد الدين عبد الحميد، **نظام القرآن، سورة البقرة**، (الهند: الدائرة الحميدية، ط1، 1420هـ/2000م).

29)قطب، سيد، **التصوير الفني في القرآن**، (القاهرة: دار الشروق، ط16، 1423هـ/2002م).

30)ابن القيم، محمد بن أبي بكر، **اجتماع الجيوش الإسلامية**، تحقيق: عواد عبد الله المعتق، (الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، ط1، 1408هـ / 1988م).

31)ابن القيم، محمد بن أبي بكر، **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط3، 1424هـ / 2002م).

32)ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، قدّم له د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي (دار المعرفة، ط2، 1408هـ/ 1988م).

33)الكفوي، أيوب بن موسى، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تحقيق: عدنان

درويش – محمد المصري، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ط، د.ت).
34)ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط1، د.ت).
35)الموصلي، ضياء الدين نصر الله بن محمد، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، د.ط، د.ت).